

من أساليب التجديد في الدعوة الإسلامية

د. محمد محمود متولي عبد البر*

* أستاذ مساعد - قسم العقيدة والدعوة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية -
جامعة الكويت.

ملخص البحث:

إن صنع أمة يحتاج إلى رجال أكفاء، ونقل الطباع أثقل من نقل الجبال، ومن هنا جاء حديث المصطفى ﷺ عن ثواب هداية الرجال فيما رواه سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال لعلي بن أبي طالب في حديث طويل: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»^(١).

ولا شك أن الدعوة بحاجة إلى استخلاص جيل من القادرين على تحمل هذه التبعة، يزودون بالعلم والخلق ويكونون راغبين راهبين، لا منتفعين ولا متلونين، وهم جند الله الذين يجاهدون بغير سلاح، إلا سلاح الوحي والحجة. علمهم وخلقهم معهم، ولديهم وسائل مكافئة لما عند الآخرين، منوروا البصائر، مشرقو العقول، قد نذروا لله أرواحهم وعقولهم، وتخلقوا بأخلاق النبوة، واقتدوا بالصحابة في جهادهم، وحبهم لله ولرسوله.

وإذا كان التبشير يعمل الآن بما يقرب من خمسة ملايين مبشر، فإنني أرجو أن يعمل المسلمون في نشر الإسلام، ولو بمائة ألف: يُربون ويرسلون إلى كل أصقاع المعمورة؛ لتسمع صوت الإسلام.

كما أنه لا بد أن يكون هناك من الوسائل ما لدى الغير: من كتب، وأشرطة، وإنترنت، ومعونات، ومعاهد، وطب، وأن يمول هذا من أهل الخير الراغبين في عمل الخير، والمؤملين في الجنة.

ومن فترة طويلة تنبه المسلمون إلى الوسائل الاجتماعية وأثرها في نشر الدعوة بين غير المسلمين، وزيادة تمسك المسلمين بدينهم، فتأسست لذلك جمعيات، كما كتب الكاتبون حول هذه الوسائل، وما يستفيدة منها المسلمون من دعاية لدينهم ولأمتهم.

إن الكلمة صارت تقطع أرجاء الأرض من أقصاها لأقصاها في دقائق، فما أخرى المسلمين أن يُسمعوا شعوب الأرض صوت الإسلام، ويظهروا لهم

أخلاقه، في هذه المرحلة التي سيطرت فيها المادية يحتاج الناس إلى روحية الإسلام، ترطب الجفاف الذي يعيشونه، وترتبت على ظهورهم التي تنوء بثقل المادة، واللهث وراءها.

وما أكثر العقلاء والباحثين عن واحة الإسلام في صحراء المادة، والذين تطالعنا الصحف بأخبار إسلامهم، وعلى الله التوفيق، ومنه التسديد.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد خير خلق الله أجمعين، وبعد:

فلكل عصر سمته، ولكل مكان عُرفه، وما يصلح لزمان أو مكان قد يصلح لغيره، أو لا يصلح، والإسلام ختام الرسالات، فلا رسالة بعد رسالة محمد ﷺ. ولذا وجب أن نخطب كل عصر وكل مصر بما يناسبه، على قدر عقله وعلمه، وحسب وضعه في مجتمعه، وأن نستخدم من الوسائل ما يستخدمه الناس، دون تقصير، حتى يتاح لصوتنا أن يبلغ ما تبلغه أصوات الآخرين.

وهذا يوجب علينا التجدد مع الأصالة، فيكون لدينا كوادِر على قدر المسؤولية: فكراً وعلماً وخُلُقاً، ويكون لدينا من الأساليب ما يقنع دون ضجيج، ويأسر دون إعنت، ويغري دون سلب للعواطف أو العقول.

وقد كان من الواجب عليّ أن يكون مما أعنى به موضوع التجديد في الدعوة خاصة، وأن أحوال أمتنا لا تسر، وسيل الصارفات عن الهدى لا يكف عن التتابع، والوسائل المستجدة تقوى يوماً بعد يوم، وأعداء أمتنا، وجند الشيطان قد تشابكت أيديهم، واتفقوا على الإغواء والإغراء.

وقد كتبت مباحث حول التجديد ومفهومه، وأنه في المسلمين لا في الإسلام، وفي المناهج لا في الأصول، وألحقته بمبحث عن تربية الكوادر البشرية الصالحة للدعوة في عصرنا، وأنهم يجب أن يختاروا اختياراً، كما يصطفى النبيون اصطفاءً، ويصنعوا على أعين أساتذة لهم، كما يصنع الأنبياء بيد القدرة الإلهية، ويؤدّبون تأديباً ربانياً.

كما تحدثت عن وسائل التجديد من: صحف، ومجلات، وكتب، وإذاعات، وتلفازات.. إلخ ثم ذكرت التثقيف العلمي للدعاة المجددين من لغة وتفسير وحديث وأدب... إلخ.

وأشرت إلى أهمية تعلم اللغات في دعوة غير المسلمين، فهذا يتيح مقدرة على الإقناع، ويفتح السبل للتواصل، وأنه ما دام محمد ﷺ رسولاً للعالمين، فلا بد - لكي تتم عالمية الإسلام - من معرفة كل لغات المعمورة، ولا يقدر على ذلك فرد، وإنما أفراد يجب على الأمة الإسلامية إعدادهم، وإرسالهم إلى كل العالم.

وقد أشرت إلى خطر الاتصال بالجماهير، ووجوب تعلم علومه، والتعرف على فنونه، وإتقان تقنياته، حتى لا نكون عالة على غيرنا، ووصفت وظائف الاتصال بالجماهير المبتغاة من الدعاة المسلمين.

وذكرت جملة حسنة من أساليب التجديد في الدعوة، بعضها قديم، وبعضها جديد.

وتطرقت إلى التجديد في إعداد البرامج، وأئنا يجب أن نستفيد من الكوادر الناجحة في هذا المجال، كما أشرت إلى أمور لا بد منها في التجديد ومنها: تقليب الأمور على كل وجوها، والتمهل، وإعمال العقل، والحذر من التقليد، ومعرفة مصلحة المسلمين فيما نقدم عليه، وتحسس الطريق إلى مواجهة الغير، والإحاطة بكل الآراء في المسائل المختلف فيها قبل أن نقول: هذا حلال، وهذا حرام، أو هذا صحيح، وهذا خطأ. وأشرت إشارات موجزة إلى بعض ما يببته لنا أعداؤنا.

تمهيد:

ينبغي أن نطمئن الحريصين على الإسلام، والمهمومين بهومهم أننا في الحديث عن التجديد في الدعوة لن نمس أصول الإسلام؛ لأننا لن نتعرض لها، وإنما سنتعرض للحديث عن التجديد في الوسائل، وفي التثقيف، وفي المناهج، وتربية الدعاة، كي نساير العصر، في التحدث معه بما يقنع، ويؤثر، ولن يكون ما ندعو إليه تقليداً لأحد، وإنما هو ضرورة مخاطبة العصر بما يؤثر فيه، لأننا لا يمكن أن نعيش بمعزل عن العصر ووسائله وثقافته.

وقد تنبه عالم معاصر إلى أن التجديد سيكون في المسلمين لا في الإسلام فقال: «الجيد من كل شيء هو القديم الذي يظل على الدهر جديداً، أما التغيير فإنه يتناول فروع الأحكام، ولا يتناول أصولها...»

وفي الدين - خاصة - ينظر المصلح مرة إلى الدين نفسه، ومرة إلى الناس الذين يؤدون فروض هذا الدين. وعمل المصلح في الدين أن يقرب تعاليم الدين من أذهان الناس على اختلاف طبقاتهم، لا أن يجعل من الدين نفسه حقل اختبار، كأنه بذلك ينشر على الناس في كل يوم ديناً جديداً.

ثم إن التجديد الذي يحاوله المصلح في بيئته الاجتماعية إنما يتناول جانب المعاملات أو الأخلاق أو الصلات الاجتماعية، أو بعض المستجدات العصرية ليجد لها أحكاماً تناسبها. وهي التي تتغير أحكامها بتغير الأزمان.

أما العبادات: فإن الدين قد وضحها تماماً، وأبان فيها الرخص والعزائم، وأما العقائد: فإنها الأسس التي تجعل كل دين مختلفاً عن كل دين آخر من حيث أصوله، ومن حيث انطباقه على الحياة.

والإسلام في هذا أيسر الأديان، وأقربها إلى العقول، وإلى الحياة، والذين يكتبون عن التجديد في الإسلام يخطئون حين ينظرون إلى البروتستانتية كحركة إصلاح ديني، ويحاولون تطبيق هذا على الإسلام؛ لفرق جوهرى جداً وهو أن التوراة والأنجيل الموجودة في أيدي الناس هي من عمل الناس، أما

القرآن: فهو كتاب منزل وصل إلينا كما نزل على محمد ﷺ، ونحن نقرأه الآن كما كان رسول الله ﷺ يقرأه هو والمسلمون الأولون.

ولو أنصف الذين يطالبون بتجديد في الإسلام على غرار البروتستانتية لقالوا: إنها ثمرة من ثمار الاطلاع على القرآن.

يقول المستشرق الألماني يوسف هل (١٨٧٥-١٩٥٠م) لا شك في أن لوثر كان وهو يضع مذهبه الإصلاحية للنصرانية الكاثوليكية (المذهب البروتستانتي) يطالع في مصحف بين يديه، وقد نقل القرآن الكريم إلى اللاتينية منذ القرن الثاني عشر (قبل لوثر بأربعة قرون).. ومن الأدلة على تأثر لوثر بالقرآن عدد من وجوه الإصلاح التي اقترحها، وهي موجودة في الإسلام ومخالفة لما كان معمولاً به في النصرانية الكنسية، ومنها:

١) - الإنسان ينجو في الآخرة بعمله الصالح، لا بتحليل الأسقف له من ذنوبه.

٢ - لا مكان للصور في الكنيسة والعبادة.

٣ - ليس للبابا عصمة في نفسه، ولا سلطان له على النصارى، ولا قدرة على غفران الذنوب.

٤ - لا رهبانية، ورجال الدين كلهم يستطيعون الزواج.

٥ - إنكار القربان، وهو قول الكنيسة الكاثوليكية بأن الخمر تنقلب بصلاة من الكاهن فتصبح دم المسيح، وينقلب الخبز فيصبح لحم المسيح.

٦ - ليس للكاهن ثوب خاص، ولا مكان لإقامة القداس، والصلاة، فكل إنسان يستطيع أن يقيم الصلاة، ويؤم الناس فيها^(١).

وللتجديد مطالبه الغالية، وكوادره العالية، وليس بالفج من الأفكار، ولا بالرغبة في المخالفة يتم التجديد، إنه ضخ دم جديد يعيد للأمة شبابها، وينشط في الحياة حركتها في شتى الميادين، يقول الدكتور أحمد كمال أبو المجد:

(١) تجديد في المسلمين لا في الإسلام، تأليف: أ. د. عمر فروخ، ص ٩-١١ باختصار، ط. دار الكتاب العربي، بيروت، ط أولى، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

«مطلوب في التجديد:

- ١ - الاعتقاد على احترام الوقت، وتعلم أسلوب التخطيط.
 - ٢ - وتحريك ملكات الابتكار، وتنشيط الخيال.
 - ٤ - تنشئة جيل كامل من العلماء المتخصصين في علوم الاتصال والمعلومات، وتحليل الأنظمة، واستخدام التقنيات المتطورة الخادمة لتلك العلوم.
- كل ذلك يبدو لنا جزءاً أساسياً من أجزاء التحرك الذي نسعى إليه، حتى يكون لنا مكان في خريطة المستقبل التي تتسابق إلى مواقعها حضارات وأمم وشعوب^(١). ولطمأنة الخائفين من التميع والضياع - خشية أن نصبح لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء - نقول: إن التجديد غير التغيير، فهو نشاط عقلي يثري الحياة من خلال أصولنا الأصيلة: العقيدة القويمة، والشرعية بكل ما تحكم من مجالات الحياة، والقيم الخلقية السامية؛ «لأن الإسلام هو كلمة الله المنزلة في كتبه، والموحاة إلى رسله. تحمل الخير الخالص، والحق الكامل، واليقين المطلق، ولكن هذا الدين الإلهي حين يتصل بالإنسان - ولا بد أن يتصل به - يتحول إلى ظاهرة مركبة، فيها الجوهر الإلهي الكامل، فيها شيء من خصائص عقل الإنسان، ونفسه ومزاجه، ولهذا فإن حديثنا عن التجديد في الإسلام ليس - بحال من الأحوال - دعوة إلى التغيير في الإسلام، وإنما هو حديث موجه إلى فكر المسلمين وسلوكهم...
- ولعل هذا المعنى الدقيق هو القائم وراء عبارة الحديث النبوي الشريف الذي يقرر أن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها^(٢).

(١) حوار لا مواجهة، ص ٢٢، تأليف أ. د. أحمد كمال أبو المجد، دار الشروق، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، طبعة ثانية.

(٢) رواه أبو داود في سننه - كتاب الملاحم. والطبراني في الأوسط، وسنده صحيح، وكذا صححه الحاكم. راجع: تمييز الطيب من الخبيث فيما اشتهر على ألسنة الناس من الحديث لابن الديبع الشيباني، ط. صبيح.

فالتجديد - إذن - تجديد لأمر الدين ومكانته، وسلطانه، وليس تجديداً للدين نفسه^(١).

إنه حث للهمم المحبطة، وللعقول الجامدة، ودعوة للإفاقة لنعي ما حولنا من عدو ماكر، وفكر سقيم، وحث للأمة على الإقبال على الحركة، ونبذ السكون، ولا شك أن دعاة التجديد سيلقون عنثاً واتهاماً بالبدعة، أو الكفر، أو الخروج على المألوف، وهذا مشاهد ومعروف، وسوف يجد المتسلقون على أكتاف المجاهدين مادة يبدؤون فيها أو يعيدون للأكل من لحوم هؤلاء المجاهدين لكن في النهاية لا يصح إلا الصحيح.

اتفق العالمان: عمر فروخ، وأحمد كمال أبو المجد على أن التجديد هو في إطار دين الأمة، ومحوط بأصول الإسلام الراسخة.

ولا بد فيه من نفي الجدل الذي لا فائدة منه، وعدم التوسع فيما وراء الكون، والتوسع في دراسة الكون، فهو كتاب الله المنظور، المجمعول دليلاً على قدرة الله وعظمته، وفي التجديد القرآن رائدنا، والسنة المشرفة دليلنا.

ولكم أعجبتني كلمة لألماني مسلم تحت عنوان: (لولا الوحي لظللنا عمياناً) يقول: «في أوائل العصور الوسطى كان الفلاسفة المسلمون قد انزلقوا إلى نفس شرك التساؤلات التي حاكها أساتذتهم من الإغريق، ومن ثم نهجوا على منوال أفلاطون وأرسطو، فقصر الفلاسفة العرب بحثهم على قضايا سرمدية الكون، أو حدوثه، والعلاقة بين الموجود والمحتمل، وطبيعة الروح... إلخ، وقد انبهر هؤلاء المسلمون بعلم الكونيات.

أما أكثر قضايا الفلسفة سخونة: مثل السببية، ومغزى الوجود، فلم تحظ منهم باهتمام يذكر في هذه الأيام، وقد استولى أرسطو على عقول هؤلاء الفلاسفة المؤمنين، فقصروا نظرتهم على الفلسفة في الماضي فحسب.

إن أكثر ما يثير انتباهنا - هذه الأيام - هو إدراكنا المثير للأسف بأن

(١) حوار لا مواجهة، ص ٤٤، ٤٥.

إخضاع القضايا الميتافيزيقية لمنهج تفسير منطقي لن ينتهي بنا إلا إلى نتائج لا منطقية، والحقيقة أن هؤلاء الرواد من الفلاسفة لم يبرهنوا بشكل قاطع إلا على مسألة واحدة فقط، وهي أننا لا نستطيع من خلال منطقنا الإنساني أن نصل إلى إدراك حقيقة المجهول بشكل يقيني.

وإذا كان لا وجود للماضي أو للمستقبل بالنسبة إلى الله عز وجل، وأن طبيعة وجوده تتمثل في الحضور الأزلي، وإذا كان وجوده خارج حدود الزمان والمكان، فما الذي يمكننا أن نعرفه عنه حقاً بتساؤلاتنا العقلانية، أو اللامنتطقية؟ ولولا الوحي لظللنا عمياناً^(١).

ولعل نص مراد هوثمان يبين لنا أن الدين جاء للواقع، ولا مجال في التجديد للجدل غير المجدي، أو للبحث فيما لا يملك الإنسان أدوات البحث فيه، وهو ما وراء الطبيعة. ولا بد أن يكون هناك توازن بين الأصول، والأساليب والأدوات.

يقول مالك بن نبي: «وتستوي الحضارة على ظهر التاريخ كلما كانت في توازن فعال يدلي بنتائجه في أفكار موضوعة تستلهم أصوله ونماذجها - أي أفكاره المطبوعة الأصلية - فإذا ما فقدت الأفكار المطبوعة في نماذجها الأساسية إلهامها، وافتقدت الأفكار الموضوعة استلهامها لتلك النماذج أصاب الخلل المسيرة، وجمع بها ظهر التاريخ، فأصبحت شروداً تغالي في الانحراف»^(٢).

والتجديد لا بد فيه من تخطيط مسبق، وتنظيم للعلاقة الاجتماعية، وتوازن بين الأشياء والأشخاص والأفكار، وإدراك لعوامل التعويق أو التبديد، وإذا أخذنا

(١) ص ٤٥-٤٧ بتصرف من يوميات ألماني مسلم. تأليف: مراد هوثمان، ترجمة: د.

عباس رشدي العماري، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط. أولى، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.

(٢) مشكلات الأفكار في العالم الإسلامي، مالك بن نبي، دار الفكر، ترجمة: د. بسام بركة،

ص، ٧، ٨، ود. أحمد شعيبو، ط. أولى، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

في التجديد من غيرنا فليكن في النافع، وخارج إطار العقائد والعبادات وثوابت الأخلاق.

إن هناك لجاناً دائمة للتخطيط التربوي والعلمي، ومراكز للبحث العلمي، ومستشارين لشركات الإنتاج من أبرز أساتذة التخصص الذي تتخذه المؤسسة الصناعية مجالاً لنشاطها. والإنسان حينما ينظم شبكة علاقاته الاجتماعية بوحى الفكرة في انبثاقها، فإنه يتحرك في مسيرته عبر الاشخاص والأشياء المحيطة به، فيتخذ العالم الثقافي إطاره في إنجاز هذه المسيرة، ويأخذ طابعه تبعاً للعلاقة بين العناصر الثلاثة المتحركة: الأشياء والأشخاص، والأفكار، فهناك توازن لا بد منه بين هذه العناصر الثلاثة، يسكب مزيجها في قوالب الإنجاز الحضاري، فإذا ما استبد واحد من هذه العناصر، وطفى على حساب العنصرين الآخرين؛ فثمة أزمة حقيقية في مسيرة الحضارة تلقي بها خارج التاريخ فريسة طغيان الشيء، أو طغيان الشخص، ففي بلد متخلف يفرض الشيء طغيانه بسبب ندرته، فتنشأ عقد الكبت، والميل نحو التكديس الذي يصبح في الإطار الاقتصادي إسرافاً محضاً. أما في البلد المتقدم: فإن الشيء يسيطر بسبب وفرة، فيفرض شعوراً من الملل لرتابة ما يرى الإنسان من حوله، فيولد ميلاً للهروب إلى الأمام، وهو يدفع الإنسان المتحضر دائماً إلى تغيير إطار الحياة (والموضوعة).

فأما طغيان الشخص: فيؤدي إلى نتائج في الإطار السياسي والاجتماعي تهدم بنیان الفكرة حينما تتجسد فيه، وكثيراً ما تعتمد مراصد الرقابة لحركة العالم الثالث إلى دفع طغيان الشخص إلى نهايته، لتشغل الجماهير عن السبب الأصيل وراء سقوط الأشخاص الذين يمثلون الفكرة البناءة؛ فتندفع الجماهير من جديد للبحث عن بديل للفكرة الأصلية من الشرق أو الغرب، فعدم التوازن بين العناصر الثلاثة يفضي إلى انهيار المجتمع، والمجتمع الإسلامي يعاني في الوقت الحاضر بصورة خاصة من هذه الاتجاهات؛ لأن نهضته لم يخطط لها، ولم يفكر فيها بطريقة تضع في اعتبارها عوامل التبييد والتعويق.

فمثقفو العالم الإسلامي لم يُنشئوا في ثقافتهم جهازاً للتحليل والنقد إلا ما كان ذا اتجاه تمجيدي يهدف إلى إعلاء قيمة الإسلام، ولذا فهو لا يدرك حركته، وأصالة مصادره، فيعيش في حالة نفسية تخلط بين الأصالة والفعالية.

ذلك أن العالم الغربي اليوم فعال، وفعاليته ممتدة لتحتوي العالم بأسره، ولكنه ليس أصيلاً، أي لا يركز إلى مبادئ صحيحة موضوعياً، وهذا سر أزمته المعاصرة فالأصالة ذاتية وعينية، وهي مستقلة عن التاريخ^(١).

وأحب أن أذكر في هذا التمهيد طرفة تحت عنوان: (تلك أمانيتهم):

فمن «كندا» نظم القس (مايكل مانشيز) المسؤول عن كنيسة (معبد الإنجيل) مسيرة كبيرة من أجل عيسى في حديقة هاريس بمدينة لندن في كندا، وشارك في المسيرة أربعة آلاف، وخطب فيهم، وجاء في خطابه (إلهنا أخرج السعودية من ظلمات الإسلام إلى نور المسيح. إلهنا. امنحنا تلك البلاد).

والمعروف أن الكثير من المنظمات النصرانية تشارك في برنامج تنصيري ضخم باسم (نافذة ١٠-٤٠) والمقصود تنصير المناطق الواقعة بين خطي العرض (١٠°-٤٠°) أي معظم البلاد الإسلامية.

وقد استنكر رئيس المركز الإسلامي هناك الحملة المليئة بالحقد والتعصب ضد المسلمين في مؤتمر صحفي، بعدها أرسل القس رسالة اعتذار للمسلمين، ولكن المسلمين طالبوه بالاعتذار علانية كما هاجمهم علانية^(٢).

وإذن فلا بد من استيعاب المتغيرات الحضارية العالمية، ومعالجة أزمات العالم المعاصر، والتعرف على شروط الوعي الحضاري الزمانية والمكانية، مع التواصل مع مصادر الإسلام الأساسية، ومحاولة اكتشاف الروح القرآني الذي بنى حضارة، ورفع أمة، وقد قدم عمر عبيد حسنة لمدارسة أجراها مع الشيخ الغزالي بهذه الكلمات حول منهجية التجديد قال فيها:

(١) المصدر السابق، ص ١٠، ١١.

(٢) ص ١٣ من الكوثر، العدد ٨، نقلاً عن السفير ٩٦/٤.

«وأهمية هذه المدارس تكمن في محاولة تخليص الفكر الإسلامي من شوائبه؛ تمهيداً لإحداث النقلة النوعية باتجاه المعرفة والمنهج في مجتمع إسلامي.

لا نقول: إنه قد استوعب المتغيرات الحضارية العالمية الجديدة، ولكنه بدأ في ذلك، فعالمية الخطاب والفكر والتوجه هي من خصائص الإسلام الذي أسس أول عالمية دينية؛ لأن محمداً ﷺ خاتم الرسل، ورحمة الله للعالمين. والقرآن خاتم الكتب، والمهيمن عليها، ولذا نلمس في المدارس انفتاحاً حضارياً عالمياً؛ بحيث تمضي المدارس إلى معالجة أزمات الحضارة العالمية بالإسلام، وبوعي منهجي يصوب منجزات الفكر البشري المعاصرة، موضحاً هيمنة الإسلام على التجربة البشرية كلها، من غير أن يطوع نصوص القرآن بعصرانية مفتعلة.

وفي هذا الصدد نود أن نشير إلى أن شروط الوعي المنهجي المعاصر لا تتم بمجرد الانتماء الزماني لهذا العصر دون انتماء مكاني، فالنمو والتطور ليس مجرد تراكم كمي لمستجدات معاصرة تضاف إلى بناء المجتمع القديم، وإنما هو تحول كيفي في بنية المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والفكرية تستدعي تواصلًا جديداً مع القرآن بشروط وعي جديد، يكونها هذا الواقع المستجد.

فمفهوم المعاصرة لا يعني استمرار المجتمع القديم بأزمته الفكرية في مرحلة زمنية متقدمة، وإنما يعني ما يصيب هذا المجتمع من تحول تاريخي يستحق بموجبه صفة المعاصرة، وفق مقاييسها الموضوعية العالمية الراهنة، التي تمكنه من إعادة وجوده، وفي ذلك إعادة اكتشاف المعنى القرآني في واقع متغير.

وبهذا فإن كثيراً من مجتمعاتنا الإسلامية قد ترى نفسها معاصرة للعالم بالمقياس الزمني لوجودها في هذا العصر، ولكنها لا تعيش في الواقع حالة عصرية، تنفتح بموجبها على شروط الوعي الحضاري العالمي الجديد، بما فيه من عقلية نقدية وتحليلية، وتطلع إلى ضبط المعرفة بالمنهج، ومعالجة مشكلات العصر.

إنه نتيجة لهذا الفصام بين مجتمعاتنا اليوم بأزمته الفكرية، وانغلاقها، وانشدادها إلى الماضي، وكونها تعيش الزمن العالمي المعاصر شعرت أمتنا بالمعاصرة، مع عجزها عن التفاعل، ولذلك نجد أن بعض القيادات الفكرية لهذه المجتمعات لا تزال تعيد التأليف في فكر الواقع التاريخي وحده، وتحاول إنتاج مراحل سابقة في مراحل لاحقة، دون اكتشاف مضمون المتغير العالمي تاريخياً واجتماعياً. إنها تكتفي بترديد موضوعات السلف الصالح رضوان الله عليهم بما كانوا عليه من اجتهاد في عصرهم وفي قضاياهم، دون الأخذ بمضمون المتغير التاريخي، وضرورة الاجتهاد في عصرنا هذا، فعوضاً من أن نجعل من السلف الصالح قدوة في الاجتهاد جعلنا منهم نماذج للتقليد»^(١).

(١) ص ١٠، ٩ من: كيف نتعامل مع القرآن، دار الوفاء للطباعة والنشر، مصر، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

المبحث الأول

التجديد في الكوادر البشرية والوسائل

يرى السامع والقاريء، والناظر أزمة حقيقية في الدعاة المؤهلين القادرين على التأثير، فأغلب العاملين في حقل الدعوة - من الوعاظ والأئمة - موظفون جاؤوا لهذا العمل التربوي الخطير على غير رغبة منهم، فهم غير مهتمين به، وهو فرصة لوظيفة حكومية يُنال بها الراتب، سواء أكان صاحبه ناجحاً في عمله أو غير ناجح، ولذا نجد الحصاد غير مؤثر تأثيراً مجدياً في الإرشاد الديني، إذ ليس هناك حماس للدعوة، ولا اجتهد فيها ولا اهتمام بالتفكير في هل هي مؤثرة أم غير مؤثرة، ونحن نرى أنه لم يشتهر في نصف القرن الأخير في الدعوة إلا قلة قليلة من الدعاة.

والكوادر الدعوية ينبغي أن تصطفى اصطفاً يقوم على الصحة الجسمية والنفسية، والعقلية، والخلقية، والاجتماعية، والعلمية، وفقد واحدة من هذه الست يؤدي إلى تعويق في أداء الدعوة. فكلها يكمل بعضها بعضاً، وتمثل شخصية الداعية السوي، وهؤلاء الدعاة يسيرون على خطى الأنبياء في هدايتهم لأقوامهم والرسول والأنبياء اختيروا اختياراً للقيام بواجب الرسالة. يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) (١) والذين أورشوا الكتاب اصطفاهم الله من عباده. قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْثَنَّا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (٣٢) (٢) وعلى مدار التاريخ لم يبرز في مجال الدعوة إلا أصحاب المواهب العالية والإقبال الكبير على الله، وأصحاب الغيرة والنخوة.

(١) سورة آل عمران، ٣٣، ٣٤.

(٢) سورة فاطر: ٣٢.

هؤلاء الذين تتجمع في تربيتهم وتكوينهم عوامل الأسرة بموروثها الديني، وحسها التربوي العالي، والجو الثقافي المحيط، والأساتذة بما يزرعونه من غيره، ورغبة في الحفاظ على الدين.

التربية الخلقية:

ويأتي على رأس تربية الكوادر الدعوية: التربية الخلقية؛ لأن الدين نور يستضيء به رجل، فيشرق في قلبه، ويرى الناس هذا النور في قوله وعمله، فينجذبون إليه. قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾^(١).

وقد وصف الله لنا سيد الدعاة محمداً ﷺ بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾^(٢)، ووصفته عائشة رضي الله عنها حين سئلت عن خلقه ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن» يقول الإمام ابن كثير: «ومعنى هذا: أنه عليه السلام صار امتثال القرآن أمراً ونهياً سجية له، وخلقاً تطبعه، وترك طبعه الجبلي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه. هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم: من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم، وكل خلق جميل، كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أف قط، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته، ولا لشيء لم أفعله. ألا فعلته؟ وكان ﷺ أحسن الناس خلقاً، ولمسست خزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ.....»^(٣).

(١) سورة المائدة: ١٥، ١٦.

(٢) سورة القلم: ٤.

(٣) اللؤلؤ والمرجان، حديث رقم ١٤٩١-١٤٩٢.

هذا هو المثل الأعلى لمن يريد أن يكون داعية. إنه يجب أن يسكن رسولنا الكريم ضمائرنا، ونتبعه في عملنا وتفكيرنا، وإلا عد من لم يكن هكذا مدعياً لا داعية. إن علو الكعب في الخلق، والطهر القلبي والنفسي، ورقة الذوق في الكلمة والنظرة وخفض الصوت وإشراق الوجه بالابتسامة لغة عالمية تفتح بها الصدور المغلقة، والنفوس الحرجة، ويستل بها من القلوب سخائمها.

ذلك «لأن الخلق الزاكي لغة إنسانية عالمية تُعجب وتُقنع، وبهذه اللغة تفاهم الصحابة والتابعون مع الشعوب التي عرفوها، فدخل الناس في دين الله أفواجاً، أي إن القدوة ليست دوراً تمثيلاً يؤدي إلى الخداع، واجتذاب المشاهدين، كلا. كلا. فحبل الكذب قصير. والقدوة الحسنة - فردية أو جماعية - تفرض احترام العقيدة والحفاوة بها.

وهذه القدوة هي الحلاوة في الثمرة الناضجة، أو الرائحة الزكية في الزهرة العطرة، وهي نضج الكمال الذاتي الحق، وقد شاء الله أن يؤتي السلف الصالح أنصبة جزلة من هذا الحسن الذاتي: ففتحت لهم المدن العظام أبوابها، وألقت إليهم الجماهير بقيادها، وعالمية الإسلام تفرض على أتباعه أن يقدموا من سلوكهم الخاص والعام نماذج جديرة بالإكبار، أو على الأقل هي جديرة بدفع الناس للسؤال عن حقيقة الإسلام لمن لم يعرفوا هذه الحقيقة، وما أكثرهم في أرض الله»^(١)!!

إن وراء انتشار الإسلام في المشارق والمغارب رجالاً أصحاب خلق زاك وسلوك راق، غلبوا فكانوا أرحم الغالبين، وحاربوا فكانوا أنزه المحاربين، وباعوا فكانوا أنصح البائعين، وجاوروا فعز بجوارهم الإنسان والطيور والحيوان، وفي فتح مصر علامات مضيئة ذكر منها الرافعي رحمه الله طرفاً في قصة

(١) تفسير ابن كثير، ج ٨، ص ٢١٥، ط الشعب.

(٢) الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر: الشيخ محمد الغزالي، ص ١٧٧، ١٧٨، بتصرف يسير، ط ذات السلاسل.

(اليمامتان) حين ذكر أن عمرو بن العاص رضي الله عنه لم يهدم خيمته لأن يمامة باضت بها، وقال: هذه يمامة تحرمت بنا.

كما ذكر وصف ابنة المقوقس لجند الإسلام بأن الواحدة تخشى على نفسها من أبيها، ولا تخشى على نفسها من هؤلاء^(١).

ولا يمكن لمهزول في أي ناحية من النواحي أن ينتج سوى الهزال. ومن أوليات التجديد في الدعوة: التجديد في اختيار الرجال الذين سيقومون بها ويتطلب تجديد الإسلام نظرة أخرى إلى الرجال الذين يحملون علومه، وينصرون في الحياة مبادئه، فإن الطريقة التي يتكونون بها، والمستويات التي هم عليها تظلم الإسلام، وفي أعقاب خطبة جمعة ذكر لي أحد الإخوة أن الذي تولى الأذان والإقامة هو إمام المسجد، ثم حدثني عن فشله في قراءة سورة «ألم نشرح» وهزال خطبه ودروسه... إلخ. وفي كلمات عن اصطفاء الدعاة يقول شيخنا المرحوم محمد الغزالي: «إن الله اختار المبلغين عنه من أكرم البشر عرقاً، وألقهم فكراً، وأزكاهم معدناً، وأرحبهم طاقةً،..... وصدور الدعوة الدينية عن رجال تلك مكانتهم الشخصية وضع للأمور في مواضعها، فإن العظام كفوها العظماء، وتعريف الناس بالله، وسياستهم بهداه، وفك آصارهم النفسية والاجتماعية بشره يُنتقى له السادة من البشر. السادة بمواهبهم وكفايتهم»^(٢).

والاصطفاء الذي هو سنة إلهية في اختيار الرسل والأنبياء والصديقين اتبعه المبشرون والمستعمرون بالرغم من إهمالنا معاصر المسلمين له، فهم يختارون من يؤهلونه للتبشير من أصحاب الأجسام القوية، والتخصصات العالية، ويعلمونه ويحمسونه ويزرعون في رُوعه أنه يخدم المسيح، وأن زرعه للفساد العقدي في قلوب الناس تقرب إلى الله. وقد يوصلونه إلى رئاسة الدولة، أو أستاذية الجامعة، أو الزعامة الاقتصادية في بلاده.

(١) راجع: وحي القلم، ج ١، الفصل الأول.

(٢) ص ١٥١-١٥٢ معركة المصحف في العالم الإسلامي، محمد الغزالي، ط أولى، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م، دار الكتب الحديثة.

جاء في كتاب (التبشير والاستعمار) ما يلي:

«ومما يلاحظ: أن بريطانيا وفرنسا حرصتا قبل أن تخرجا مضطرتين من عدد من مستعمراتها الإفريقية، على أن تمهدا في كل دولة أعطيت استقلالها السياسي لمجيء رجل صابيء إلى رئاسة الدولة في المستعمرة المستقلة حديثاً». إنهما يعتقدان أن الصابيء يكون أميل إلى السياسة الغربية من غير الصابيء؛ ذلك لأن المسيحية في رأيهما تجمع بين ذلك الصابيء وبينهما أكثر مما تجمع بين الصابيء وبين قومه الأولين من المسلمين أو الوثنيين.

ومع أننا عرفنا نفرأ من هؤلاء قد خيبيوا ظن بريطانيا وفرنسا في ذلك، فإن نفرأ آخرين كانوا كما شاءت بريطانيا وفرنسا، ولعل القطعة التالية المأخوذة من مجلة روز اليوسف - مع شيء من التلخيص والتصرف - تمثل الحالة الثانية تمثيلاً صحيحاً:

«توقع البعثات التبشيرية في السنغال مع عدد من الأسر السنغالية الفقيرة عقوداً، تقدم بموجبها تلك البعثات التبشيرية إلى الأسر الفقيرة مساعدات عينية ضئيلة من أرز مثلاً، في كل شهر، على أن يكون لها حق اختيار طفل من أطفال الأسرة تربيته على حسابها، ويكون في العقد مادة تنص على أن الأسرة مجبرة على رد ثمن المساعدات، وعلى دفع نفقات ابنها، ونفقات تعليمه إذا هي خالفت شروط العقد (بطلب استرداد ابنها مثلاً)، وتختار البعثة التبشيرية من أطفال تلك الأسرة صبيأً دون الخامسة من العمر، ثم ترسله إلى مدرسة - تبشيرية طبعاً - وينقطع عن أهله، وينشأ تنشئة مسيحية، ثم يرسل إلى فرنسا لإتمام تعليمه العالي، وبعدئذ يعاد إلى السنغال ليعتقد في الأغراض التي توافق هوى فرنسا، وحين يعود إلى السنغال بعد أن أصبح مسيحياً يمنح حق المواطن الفرنسي في المستعمرات، من حيث المستوى الاجتماعي والوظيفة.. ويضرب الكاتب مثلاً على ذلك قائلاً:

أنت تعلم أن كلمة سانجور رئيس السنغال الأسبق معناها سان جورج - القديس جورج - وهو رئيس جمهورية مسيحي، لكن أبويه وإخوته مسلمون»^(١).

(١) ص ٣، ٤ من التبشير والاستعمار.

والهجمة على الإسلام هجمة منظمة، تقودها دول، وتمولها هيئات، ويجند لها جنود، وتحت تصرفها مئات من وسائل الإعلام، وعدد من الأقمار الصناعية، وشركات تجارية، وجامعات وسفن تجوب أعالي البحار، ويخطط لها رجال من مراكز القوة وراءهم حكومات مسيطرة، وقوى غاشمة، ودعاة الإسلام ما بأيديهم قليل، والمخلصون قليلون، والفاهمون من المؤثرين أقل من القليل.

ولذا وجب أن يكون هناك تجديد في الوسائل يساير الوسائل الحديثة، وفي العلم يساير ما لدى أعدائنا، وفي الإصرار على خدمة الإسلام، وفي الرجال... إلخ.

التجديد في الوسائل:

التجديد: هو إدخال الجديد من كل نافع يستفاد منه في الدعوة إلى الإسلام، ومعرفة كيفية استخدامه الاستخدام الأمثل، مع ملاحظة مواءمة الجهد والوقت والظروف له، وإتقانه حتى نستطيع التعامل معه تعاملًا نافعًا، في استراتيجية وخطة محكمة، تراجع أساليبها ونتائجها من آن لآخر، مع الاستفادة من خطط الآخرين وطرائقهم، واختيار النافع وتجنب غيره.

والدعوة: هي إصلاح أمة، دانت بالإسلام، ودعوة أمم لم تدن به، وميدانها أرض الله كلها، وموضوعها الإسلام، ومجالها الحياة بكل أنشطتها، ولذا تحتاج لكل جهد مخلص، وكل تخصص يمكن أن تأتي من وراءه فائدة للإسلام وأمتة، ومن الأمثلة النافعة لكتابات الأطباء في الدعوة: كتاب التبشير والاستعمار فالمؤلفان طيبيان، وكتابات أ. د. حسان حتحوت والدكتور محمد علي البار، وخطب د. عمر عبدالكافي.

ولسنا مع القائلين بأن كل الوسائل استهلكنا، ولم يعد هناك تجديد، إنما التجديد ممكن في الكوادر وإعدادها، والوسائل وتجديدها واستخدامها، والخطط الموضوعية، والأهداف المرجوة وطريق الوصول إليها، وفي البرامج التي يقدمها الراسخون في العلم من كبار علماء المسلمين، وبخاصة البارزين في الدعوة وشتى العلوم الإسلامية.

وهناك برامج صارت كتباً، وبالعكس كتبت صارت برامج، ومنها: علل وأدوية، والطريق من هنا، وجدد حياتك، حيث صار الأولان من برنامجين إذاعيين إلى كتابين، والأخير من كتاب إلى برنامج تليفزيوني، وهي للشيخ الغزالي، وأقبل المسلمون على سماعها برامج، وقراءتها كتباً، وتجاوبوا مع بعض البرامج التليفزيونية تجاوباً لافتاً للنظر، اتضح من كثرة المتصلين والمتصلات للمشاركة في البرنامج بالسؤال والمناقشة، ومن هذه البرامج: «نور على الدرب» وهي أسئلة ظل المرحوم الشيخ عبدالعزيز بن باز يجيب عليها.. وخواطر المرحوم الشيخ الشعراوي، ونور وهداية للمرحوم الشيخ علي الطنطاوي، وبرامج القرضاوي وغيره في قناة الجزيرة، وبرنامج الدكتور الكبيسي حول الكلمة وأخواتها في القرآن، وبرامج الدكتورين خالد المذكور وعجيل النشمي حول الفتوى، وبرنامج عمرو خالد.

ومن الملاحظ أن بعض هؤلاء الدعاة في طريقتهم تجديد مشوق، وإحاطة لافتة للنظر، وال جماهير متجاوبة معها تجاوباً كبيراً، وتبقى مجالات قرآنية وحديثية كثيرة يمكن أن تشكل جديداً نافعاً، مثل: برنامج حول أسباب النزول في القرآن، وأسباب ورود الحديث الشريف، والأمر والنهي في القرآن، والمجمل والمفصل، والنداء والإيجاز والبلاغة.... إلخ.

ويمكن إجمال الوسائل التي يطلب استخدامها كالتالي:

- ١ - الصحف والمجلات والكتب والكتيبات والإذاعة والتليفزيون والكاسيت وشريط الفيديو.
 - ٢ - المشافي والملاجيء والإعانات الاجتماعية من أضياعي وأكسية ولوازم الدراسة.
 - ٣ - الكتاتيب والمدارس والنوادي والمسابقات.
 - ٤ - القصة والرواية والقصيدة والمؤتمرات والحوارات.
 - ٥ - الصُّور، فلها من التأثير في النفوس ما يفوق آلاف الكلمات.
- وإذا ولجنا طريق الفنون فلنكن إلى جانب الجاد والهادف من الفنون.

ولن نكون بدعاً فيما نطلب، فهناك غيرنا من أبناء الأمم الأخرى ينادون بما ننادي. ويضاف إلى ما سبق:

١ - استخدام الكتيبات المحتوية على أحاديث أو نصائح أو عبر في شعر أو أقصوصة أو حدث واقعي أو إحصاءات؛ للفت المدعويين إلى أشياء معينة يقصد لفتهم إليها.

٢ - عمل تقويمات عليها عبارات إسلامية معينة؛ للتذكير والتحبيب بالمبادئ الإسلامية.

٣ - طبع كتب وبيعها بأسعار زهيدة، تمول من أموال المحسنين من المسلمين.

٤ - ترجمة بعض الكتب النافعة أو غير النافعة، فأما الأولى: فلما فيها من نفع، وأما الثانية: فللتنبيه على ما فيها من أضرار.

٥ - الدخول في عالم القصة، واستخدامها في الدعوة، ومسرحة بعضها، على أن يراعى فيها نظام الإسلام وحكمه، مع الاستئارة بآراء مجامع الفقه الإسلامي واستشارة الراسخين من العلماء في ذلك، على أن نضع في حسابنا مدى نفعها إن كانت نافعة، ومدى ضررها إن كانت ضارة.

٦ - عمل مسابقات في القراءة الحرة، وكتابة الأبحاث للدعاة والمدعويين على حد سواء، وتكون فيها جوائز ترصد من أموال المحسنين، أو بعض الجهات الحكومية المشاركة في ذلك.

٧ - التأكيد المشدد على دور الأسرة أمّاً وأباً على التربية حسب مبادئ الإسلام وقيمه وتذكير الآباء والأمهات بدورهم في ذلك، والثواب المرصود لهم، وقيمة العمل الذي يؤدونه في الدنيا والآخرة.

التثقيف إجمالاً:

من المجدي أن يتبع في أسلوب تثقيف سالكي طريق الدعوة خطتان: إجمالية، وتفصيلية، وتعتمد الإجمالية على المتون المحيطة بمواد الشريعة الإسلامية مع بعض الكتب المنبهة للمسلم، لما يحيط به، ككتاب «دمروا الإسلام أبويدوا أهله» لمصطفى العالم.

وأما التفصيلية: فمن المجدي أن يضعها خبراء علماء، كل في دائرة اختصاصه؛ لتكون أصولاً وقواعد يحتكم إليها، دون دخول في مصطلحات عميقة أو معقدة. كما يزود طالب الدعوة بالكتب النافعة حول الدعوة وأصولها والتفسير والحديث.....

وفي العلوم اللغوية يزودون ببعض كتب النحو والصرف والبلاغة والأدب وإعجاز القرآن والسنة النبوية.

وفي العلوم الاجتماعية يدرسون كتباً في التاريخ وعلم النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد، ويحاول واضعوها إبراز عوامل القوة والضعف والنهوض والسقوط في حياة الأمم بعامّة وأمة الإسلام بخاصة.

إن استبحار المعارف في عصرنا وتشعبها وسرعة نقلها وجاذبية عرضها ساعدت في إشاعة أنماط معرفية وسلوكية، منها: الضار، ومنها: النافع. وهي تفرض على من يريد أن يكون داعية حقاً المتابعة الواعية، وفرز النافع من الضار، وتنبيه المسلمين إلى ما يؤخذ وما يترك بدقة.

ونحن لا نريد تصورات سقيمة من عقول كليلّة، أو منحرفة، وأفئدة لا تغار على قيمة، ولا على دين، ولا أمة، إنما نريد عقولاً زاكية، وأفئدة واعية، ونفوساً تتطلع إلى حفظ دينها وأمتها، وصيانتها من عوامل العطب، تتحرك حسب تدبير وخطّة محكمة.

وكما قيل: لا يفل الحديد إلا الحديد، وأعداء الإسلام يقفون (بالمرصاد) ويقدرّون خطره ويضعون الخطط المتجددة لمقاومته. «ويرى لورنس براون - وأكثر المبشرين على رأيه - أن القضية الإسلامية تختلف عن القضية اليهودية، والمسلمون يختلفون عن اليهود في أن دينهم دين دعوة، وأن الإسلام ينتشر بين النصارى وبين غير النصارى.

ثم إن المسلمين كان لهم كفاح طويل في أوروبا، فأخضعوها في مناسبات كثيرة. على أن الفرق الأساسي بين المسلمين واليهود كما يراه المبشرون هو أن المسلمين لم يكونوا يوماً ما أقلية موطوءة بالأقدام. ثم يقولون: إننا إذا نظرنا إلى العالم لم نر مكاناً يمكن أن يصبح المسلمون فيه أقلية إلا في الهند والصين».

ثم يعلن لورنس براون رأيه الخاص، فيقول: «لقد كنا نخوف بشعوب مختلفة، ولكننا بعد الاختبار لم نجد مبرراً لهذا الخوف. لقد كنا نخوف من قبل بالخطر اليهودي، وبالخطر الأصفر، وبالخطر البلشفي، إلا أن هذا التخويف كله لم نجده كما تخيلناه، إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا، وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم هو عدونا الألد، ثم رأينا البلاشفة حلفاء لنا. أما الشعوب الصفراء، فإن هناك دولاً ديموقراطية كبيرة تتكفل بمقاومتها... ولكن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام، وفي قدرته على التوسع والإخضاع، وفي حيويته، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي»^(١).

في النصاب العلمي:

في محاضرة - بمعهد الإمامة - ألقاها علينا المرحوم الشيخ محمد الغزالي عام ١٩٦٧ ذكر لنا أنه يوجد بمصر ٢٠٠٠٠ مسجد يُلقى بها في الشهر ٨٠٠٠٠ خطبة، وقرابة ١٢٠ ألف درس أسبوعياً، أو يزيد، ثم قال: إنه لو كان هؤلاء مؤثرين فعلاً لزلزلت أقدام الباطل، وصححت عقائد، وهذبت أخلاق، وحسنت معاملات، وتعلم الجهلاء، وازداد العلماء علماء، ولكن الذين وراءهم الجدوى قليلون، ثم ذكر النصاب الذي يحتاجه الداعية، وبديهي أن من انقطع لشيء جوده، وأن من قضى عمره بغير درس ولا اطلاع ولا تمحيص سيموت جاهلاً.

ولعل من أهم مقتضيات التجديد: إتقان اللغة العربية:

اللغة وعاء لحمل المعاني، ووسيلة لنقل الأفكار، وأداة لحمل العلم والتواصل بين العالم ومن يعلمهم، ويجب أن يكون محصولك من قواميس اللغة كفاء المعاني التي يمتلي بها ذهنك، وإلا أصبت بالحصر، وقد رأينا كيف كان أداء شيوخنا المتمكنين من ناصية اللغة: شعرها ونثرها، وقد كانت وزارة التربية والتعليم تطبع بعض الكتب الأدبية وتوزعها على طلابها، من مثل: العمدة لابن رشيق، والمنتخب

(١) التبشير والاستعمار، للدكتور عمر فروخ ومصطفى خالدي، ص ١٨٤، ١٨٥.

في أدب العرب، وتاريخ آداب اللغة العربية للرافعي، ومختار الصحاح، فنشأت أجيال تجيد العربية، وتحفظ الكثير من آدابها، والداعية الحق، والخطيب الجهد لن يكونا إلا بمعرفة رصيد ضخ من اللغة العربية وآدابها، وقد كان بعض شيوخنا يحفظون المعلقات، وديوان الحماسة، وبعض القصائد المشتهرة كلامية العرب للشنفرى، ولامية العجم للطغرائي، وبانت سعاد لكعب بن زهير، وبهذا استقامت ألسنتهم، وبرعوا في توصيل المعلومات بشعبيتها: الخطابة، أو الكتابة.

ويستطيع الأزهر ووزارة الأوقاف إقامة مسابقات في حفظ القرآن والسنة وروائع من الأدب العربي في عصوره المختلفة: شعراً، ونثراً، وخطباً، ووصايا، وأمثالاً، وحكماً. ولا أنسى سهرة في الإذاعة المصرية مع المرحوم الشيخ الشعراوي دامت أكثر من ساعتين يذكر فيها ما يحفظه من أشعار.

ومثلها في إذاعة الكويت للشيخ محمد الغزالي دامت أكثر من ساعتين استعرض فيها الشيخ شعر الحكمة والدعوة بدءاً من زهير بن أبي سلمى وانتهاء بعمر أبي ريشة، وقد ولدت كثرة المحفوظ عند الشيخ الغزالي قدرة عجيبة على نحت الكلمات بعضها من بعض.

ومما يساعد على ذلك أن تكون دواوين الأدب مما يعطى للدعاة بسعر مخفض، أو بالمجان؛ ليثري قدرتهم الخطابية والكتابية، فيجعل لغتهم أثرى، وأسلوبهم أجمل وأقوى.

يقول الشيخ محمد الغزالي تحت عنوان «ذبول الأدب العربي»:

«التدين الفاسد لا يكسب الآخرة، ولا يحفظ الدنيا، وقد لوحظ أن المسلمين لما ضعف إيمانهم، وجفت ينباع التقوى في أفئدتهم أضاعوا دولتهم القائمة على قيم بيّنة، وأضاعوا في الوقت نفسه عناصر حياتهم العاجلة، وفقدوا الإحساس بالجمال والقبح، وأصاب ملكاتهم الأدبية ضمور شائن، فانحط الشعر والنثر، وقل الأدباء المصورون، كما قل المؤلفون والمفكرون..»

ونظرة إلى الأدب ورجاله - منذ القرن السادس - تجعلنا نشعر بهذه الحقيقة، فالديباجة الفخمة، والوصف الكشاف، والحكمة النفاذة.. والثناء والمدح.. كل ذلك تلاشى، وانكمش الأدب شعراً ونثراً.. وجاء شعراء صغار.. لم يذكر

التاريخ أسماءهم... وقد فار الأدب العربي أوائل القرن الرابع عشر فورة عظيمة،
وظهر شعراء وخطباء وكتاب أعادوا للغة العربية قوة الأداء، وسحر البيان..
ونريد أن ننبه إلى أن ازدهار الأدب يعين الدعوة الإسلامية على الانطلاق،
كما يعين مراجع الإسلام الأولى على التألق، ويقرب الانتفاع منها..

ويوجد علماء دين في هذا العصر نصيبهم من الأدب العالي والبيان
الشافعي قليل، وهؤلاء عبء على الإسلام وفقهه ودعوته، فإن معجزة هذا الدين
كتاب، ورسوله إنسان مرهف الحس، أوتي جوامع الكلم، فكيف يتذوق الإسلام
امرؤ محروم من الذوق الفني ومن القدم الراسخة في اللغة وآدابها^(١).

ويجب أن يكون هناك أسلوب محدد، إضافة إلى ما سبق، ومنه:

١ - تأليف بعثات وجماعات لتعليم اللغة وحدها، دون ربط هذا التعليم بالبلاغ
الديني. أي تهيئة معرفة اللغة وإتقانها لأي إنسان يطلب المزيد من الثقافة،
وسوف يجني الإسلام على المدى البعيد ثمرة ازدهار اللغوي المجرد.

٢ - الجد في محاربة اللهجات العامية داخل الوطن العربي، وتضييق الخناق عليها
ومنع البرامج التي تقدم الأحاديث باللغات العامية، ومنع الأزجال والمواويل
والشعر الفوضوي المبتدع أخيراً، والذي يسمونه الشعر المرسل.

٣ - إحياء الأدب العربي الخالص، وتقريبه من طبيعة العصر، أي تجريده من
التكلف وافتعال المحسنات اللفظية، وتشجيع الشعراء المجيدين بشتى
الوسائل...

وقبل ذلك لا بد أن تقوم مجامع اللغة العربية بجهد محترم في نشر ألفاظ
الحضارة، وجعل العربية لغة للعلوم الحديثة..

إن العناية باللغة العربية جزء حقيقي من عمل الإعلام الإسلامي، وخطوة
مقصودة ليعرف العالم أجمع من نحن وما رسالتنا؟^(٢).

(١) الدعة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، محمد الغزالي، ص ٨٧، ٨٨، ١٩٨٠، ط. أولى.

(٢) المرجع السابق، ص ١٩٠، ١٩١.

وإذا كان من يتصدى للحديث إلى أهله لا يتقن لغته التي ولد في جوها، وتربى من أبوين ينطقانها فكيف يستطيع أن يخطب أو يحاضر أو يحاور أو يكتب بها؟ ولا بد أن يكون لدى المسلم الهمة العالية لحفظ لغته، والامتلاء منها، وخاصة إذا كان يريد العمل في الدعوة، فإن سرعة الإلقاء، وتدفق المعاني من الذهن إلى اللسان يحتاجان إلى كم من الكلمات والجمل يسايرهما، حتى لا يصاب المتحدث بالحصر، أو يجري على قلبه معنى لا يجد له تركيباً يؤديه فيتلعثم، وفواميس اللغة، - وبخاصة المتبحر منها - فيها لمريد التعلم ثروة لغوية لا يستغني عنها.

وقد كان من وصايا شيخنا البهي الخولي رحمه الله أن تكون لنا ساعة، أو ساعتان أسبوعياً للاطلاع على معاجم اللغة، حتى يفسح قاموسنا اللغوي، وتتسع ثقافتنا اللغوية، ويذكر لي أحد الإخوة أنه حضر خطبة جمعة للمرحوم الدكتور أحمد الشرباصي احتوت على عدد كبير من وصايا سيدنا علي من الكتاب المنسوب إليه وهو «نهج البلاغة» وذكروا أن بعض شيوخنا كان يحفظ مائة ألف بيت من الشعر، وذكروا أن أبا نواس كان يحفظ خمسة آلاف أرجوزة... إلخ.

فأين نحن من هؤلاء؟

تلك لغتنا، فأين مكان اللغات الأخرى في حياة الدعاة؟ ولقد سمعت شيخنا الغزالي يقول: ما ندمت على شيء قدر ندمي على أنني لم أتعلم الإنجليزية، والواقع أن عدم المعرفة بلغة المدعويين حاجز نفسي وأدبي وروحي بين الداعية ومدعويه، وأنا أحس أن وجود المترجم أشبه ما يكون بالخطبة من الورقة، فهي تفقد الخطيب كثيراً من التأثير في مدعويه.

أهمية تعلم لغة المدعويين:

لكي تسود الحميمية بين الداعي ومدعويه غير العرب لا بد من التخاطب معهم بلغتهم، ولعل مما يوجه لذلك ويحض عليه: قول رب العزة جل وعلا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ۚ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ﴾

يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾^(١) إن التخابط بلغة واحدة أعون على الفهم، وأجلب للألفة، حيث ترد ردود الكلمات سريعة ويكون رجع الصدى قريباً، يقول الإمام الفخر الرازي: «اعلم أنه تعالى لما ذكر في أول السورة (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) كان هذا إنعاماً على الرسول ﷺ، من حيث إنه فوض إليه هذا الأمر العظيم، وإنعاماً - أيضاً - على الخلق من حيث إنه أرسل إليهم من خلصهم من ظلمات الكفر، وأرشدهم إلى نور الإيمان، فذكر في هذه الآية ما يجري مجرى تكميل النعمة والإحسان في الوجهين.

أما بالنسبة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، فلأنه تعالى بيّن أن سائر الأنبياء كانوا مبعوثين إلى قومهم بخاصة، وأما أنت يا محمد فمبعوث إلى عامة الخلق، فكان هذا الإنعام في حقك أفضل وأكمل.

وأما بالنسبة إلى عامة الخلق، فهو أنه تعالى ذكر أنه ما بعث رسولاً إلى قوم إلا بلسان أولئك القوم، فإنه متى كان الأمر كذلك كان فهمهم لأسرار تلك الشريعة ووقوفهم على حقائقها أسهل، وعن الغلط والخطأ أبعد... وقد دلت هذه الآية على أن إرسال جميع الرسل لا يكون إلا بلغة قومهم... والمعنى أنا إنما أرسلنا كل رسول بلسان قومه؛ ليبين لهم تلك التكاليف بلسانهم، فيكون إدراكهم لذلك البيان أسهل، ووقوفهم على المقصود والغرض أكمل... ليكون بيانه لهم تلك الشرائع بلسانهم الذي ألفوه واعتادوه»^(٢).

وعن أهمية تعلم لغة المدعويين يذكر «أن ريمون لول هو أول من تولى التبشير بعد أن فشلت الحروب الصليبية في مهمتها، فتعلم لول اللغة العربية بكل مشقة، وجال في بلاد الإسلام وناقش علماء المسلمين في بلاد كثيرة»^(٣).

(١) سورة إبراهيم: ٤.

(٢) التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي، ج ١٩، ص ٧٩-٨٢ بتصرف، ط. ثانية، دار الكتب العلمية - طهران.

(٣) الغارة على العالم الإسلامي، لـ شاتليه، ترجمة: محب الدين الخطيب ومساعد الباقي، ط. السلفية.

بل ذهب المبشرون إلى أبعد من تعلم اللغة العربية الفصحى، فحاولوا أن يتعلموا: «لهجات بلادنا العامية واصطلاحاتها نظرياً وعملياً، وأن يدرسوا القرآن ليقفوا على ما يحتويه، ويخاطبوا عوام المسلمين على قدر عقولهم، ومستوى علمهم، ويجب أن تلقى الخطب عليهم بأصوات رخيمة وبفصاحة... وألا يتخللها كلمات أجنبية، وأن يبذل الخطيب عنايته باختيار الموضوعات، وأن يكون واقفاً على آيات القرآن والإنجيل وعارفاً بمحل المناقشة، وأن يستعين قبل كل شيء بالروح القدس والحكمة الإلهية.

ومن الضروري: أن يكون خبيراً بالنفس الشرقية، وأن يستعمل التشبيه والتمثيل أكثر مما يستعمل القواعد المنطقية التي لا يعرفها الشرقيون»^(١).

وليست معرفة اللغة وحدها كافية في التحدث إلى غير العرب لدعوتهم، وإنما يحتاج ممارس الدعوة - هناك - جملة أمور، منها - في نظر باحث مسلم جاب بلاد الغرب شرقاً وغرباً، وسافر فيها طويلاً وعرضاً، وناقش ودعا، ورأى على فترة زمنية طويلة أوروبا وأمريكا - يقول: «إنك إذا ذهبت إلى الغرب وجدت طالباً مسلماً متحمساً، يحاول أن يدعو الغربيين إلى الإسلام، ولسانه لا يكاد يسعفه، ويبدو متخلفاً بالنسبة لهؤلاء القوم، ثم حداثة وجوده في مثل هذه المجتمعات تحول بينه وبين فقه أحوالهم... إن مثل هذا المسلم كمن يحترق في البحر.

فالإنجليزي المستقر في هيكله الحضاري المتوجه بكليته لمجتمعه لا يفهم ماذا يبغي هذا المسلم المتحمس، ولا يكاد يفهم حديثه عن النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي في الإسلام، فمثل هذا الداعية قد افتقد مجموعة من الشروط اللازمة لإنجاز مهمته.

افتقد اللغة كأداة هامة للاتصال، وافتقد التكافؤ الحضاري في شخص أمته وهو شرط ضروري للتهيؤ النفسي عند المدعو، وافتقد المعرفة بأسرار المجتمع وخباياه حتى يستطيع أن يربط بينه وبين دعوته، وحلول المعضلات

(١) المرجع السابق، ص ٢١.

السائدة في المجتمع، أي أنه افتقد معظم الشروط الأساسية لإنجاح مهمته، ولم يبق لديه إلا الحماس والرغبة الصادقة في تبليغ دعوته^(١).

إن رسالة الإسلام للعالمين، وللناس جميعاً، ومحمد ﷺ مبعوث للناس كافة، والناس يتكلمون آلاف اللغات وغيرها من اللهجات. ومع تقريب وسائل الاتصال بين الناس «بدت في الأفق تباشير عودة ناجحة إلى هذا الدين العظيم. فلننتصر بدقة طبيعة الدور الذي خصنا الله به، وشاء سبحانه أن يحق به الحق، ويبطل الباطل، ويهدي الحيارى. وهذا يفرض علينا أموراً ذات بال، منها:

ما دام محمد ﷺ للعالم كله، وليس للعرب خاصة، فيجب على العرب وهم المكلفون بنقل الإسلام إلى غيرهم أن يوصلوا هذا القول إلى كل قبيل من الناس بكل لغة يتم التفاهم بها. أي أنه يجب عليهم أن يتقنوا كل اللغات العالمية، وما استطاعوا من اللغات المحلية، وأن يودعوا كل لغة خلاصة كافية هادية من تعاليم الإسلام في مجال العقيدة والخلق والعبادة، وشتى أنواع المعاملات، وأن يذكروا - بدقة ولطف - الفروق الكبيرة بين أصول الإيمان عندنا، وعند أهل الأديان الأخرى: سماوية كانت أم أرضية، إن هذا الواجب لم يكن منه بد، حتى ولو كان الميدان خالياً لنا وحدنا، فكيف وهناك أجهزة عالمية مخوفة تخصصت في تحقير الإسلام، وإهانة نبيه؟

وقد تأمرت على الإسلام شتى القوى، وتآلب ضده خصوم خبثاء يصطادون الشبه ويتلمسون العيوب.

وقد سخر الاستعمار أجهزة إلحادية وصليبية سبقتنا إلى أجيال كثيفة من الزنوج والجنس الأصفر، وتركت في أنفسهم سموماً ضد محمد ﷺ ودينه وأتباعه، وانتهزت الصمت الذي خيم على أجهزة الدعاية الإسلامية، والسلبية المشينة التي لذنا بها، وراحت تكذب وتكذب، حتى نجحت في تلويث سمعتنا،

(١) مقدمات البعث الحضاري، أ. د. سيد دسوقي حسن، ص ١٥.

وقدّرت على غرس تدين مختل الأصول، مضطرب السلوك، وأمكنها بسهولة أن تصد عن سبيل الله، وتشوه معالم الصراط المستقيم.

إن ذلك يوجب علينا تحمل عبء تعليم الجاهل، وتبصير المخدوع، وتعريف الناس بربهم الواحد الأحد، الفرد الصمد، وربطهم بالدين الذي حمل رايته جميع الأنبياء، ثم نقاه وشد دعائمه وثبت أهدافه الخاتم محمد ﷺ^(١).

فأما أن يتعرض للدعوة أناس بضاعتهم قليلة وأخلاقهم هزيلة، وأنفسهم عليّة، حظهم من العلم قليل، ومن خلائق الرجولة والكفاية أقل فلا فائدة، إن الدعوة إلى الله جهاد نفس في نفوس، ولهذا لا فائدة إذا لم تكن هذه النفس أذكى وأرقى، وهي درجة لا ينالها المهازيل؛ إنما يبرز فيها، ويجدي أصحاب الرغبة العارمة في حفظ دينهم وأوطانهم، ولكي تصون الحقيقة، وتضبط حدودها يجب أن تعرف هذه الحقيقة، وأن تعرف غيرها معها.

قد تقول: وما شأن هذا الغير؟ ولماذا يخدش الجهل به حسن التصور للحق المجرد؟ والجواب: أن الصورة الكاملة لا بد لها من حدود تنتهي إليها، وعند النهاية المرسومة لهذه الحدود تبدأ حقائق مغايرة.

ولن تتميز معرفة الشيء إلا إذا عرفت الأغيار المجاورة له، أو المشتبه به، ولذلك قال الأقدمون: بضدها تتميز الأشياء.

وقد كان عمر رضي الله عنه حريصاً على تعريف الجاهلية للناس، لا لأن تعريف الجاهلية دين. بل لأن معالم الإسلام، ومواقع إصلاحه لا تستبين إلا إذا عرفت الظلمات والمظالم التي جاء هذا الدين لتبديدها، ومحو شاراتها.

قال عمر رضي الله عنه: «إنما ينحل الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية.

من هنا كان لزماً على كل مشغول بعلوم الإسلام أن يدرس الحياة كلها، وأن يتعرف على وجوه النشاط البشري، ومراميهِ القريبة والبعيدة.

(١) الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، محمد الغزالي، ص ١٧٥، ١٧٦.

إن ضيق العطن، وسوء البصر بما يقع في الدنيا، وما يتوقع، والانحصار في حدود الفكرة الخاصة، والاقتناع بجانب من المعرفة دون جانب، كل ذلك حجاب دون معرفة الإسلام والإفادة من تراثه الضخم في ميادين الثقافة والتربية والتشريع، وسياسة الأفراد والجماعات.

والدراسات المقارنة هي - في نظري - أجدى الوسائل للبحث عن الحقيقة والظفر بها، وإني أهيب بالعلماء المنصفين أن يجيلوا أبصارهم فيما بلغته الآداب والفلسفات من نتائج، وأن يضموا إلى هذه المعرفة دراسة الإسلام نفسه، وهم بأيسر مقارنة منتهون إلى ضرورة نفع العالم بهداياته، ومنع العوائق التي تصد عنه.

وكلمة أخيرة إلى علماء المسلمين: إن قصر باعهم في علوم الحياة هو أبشع جريمة يمكن أن ترتكب ضد الإسلام.

هذا القصور إن أمسوا به في هذه الدنيا متخلفين، فهم عند الله ورسوله أشد تخلفاً، وأسوأ عقبي^(١).

إتقان علم الاتصال بال جماهير:

يصنف علماء الاتصال عملية الاتصال إلى أربعة أنواع، هي:

١ - الاتصال الذاتي، وهو ما يصنعه الإنسان مع نفسه من محاسبة ومعاتبة، أو إغواء، ومنه قول امرئ القيس: قفا نبك، وقول السيدة هاجر رضي الله عنها لنفسها في رحلة البحث عن الماء: صه^(٢).

٢ - الاتصال الشخصي وهو ما يكون بين شخص وآخر، ويعين اتحاد اللغتين على تمامه ويسمى الاتصال المواجهي.

٣ - الاتصال الجمعي، وهو ما يكون المرسل فيه فرداً والمستقبلون جماعة كبيرة.

(١) ص ٢١١-٢١٢ من: جدد حياتك للشيخ محمد الغزالي، دار الكتب الحديثة، بدون تاريخ.

(٢) راجع: رياض الصالحين، كتاب المنثورات والملح، ط. الحلبي.

٤ - الاتصال الثقافي، وهو ما يكون بين ثقافة وأخرى: أخذاً وعطاءً، ونفعاً وضرراً..

وقد قربت وسائل الاتصال المسافات، واختصرت الوقت، وساعدت على التعرف على النافع والضار، ولا بد من استخدامها، وإلا كنا كمن يترك السفر بالطائرة ليسافر على الجمل، والناظر إلى استخدام وسائل الاتصال في الضار يرى - ولا بد - ضرورة استخدامها في النافع فهي تبث كماً هائلاً من المسليات والمرفهات مضيعات الوقت والجهد، وشاغلات الفكر بكثير مما ضرره أكبر من نفعه. من رقص وغناء. مما يزينه عارضوه على الجماهير، وأغلبها ممن لا يقدرون قيمة الوقت كوعاء للعمل والإنتاج.

وينبه إلى هذا كاتب غربي فيقول: «الألفاظ فن وفنان وفني وغيرها كثيراً ما تستخدم على سبيل التلطف، وإذا نظرنا إلى الأشياء التي تدعي الحق في هذه الكلمات سيتضح لنا أن الأشياء التي يطلق عليها فن اسمها الصحيح هو التسلية والترفيه، فأغلب أدبنا نثراً وشعراً وتصويرنا ورسمنا ونحتنا... إلخ قد صمم في أغلب الأحيان بقصد الترفيه.. على أننا نعرف أن هناك فرقاً بينه وبين الفن»^(١).

ثم ينبه إلى خطر الترفيه عندما يزيد عن حده فيقول:

«الترفيه يصبح خطراً على الحياة العملية عندما يزداد الدين المستحق على حصيلة طاقة الحياة، بحيث يتعذر تعويضه في سبل الحياة المعتادة، وعندما تبلغ هذه الحالة حد التآزم يحدث إفلاس في الانفعالات المطلوبة لسير الحياة العملية، أو الحياة العقلية، وهي حالة نتحدث عما فيها من تبدل غير محتمل، أو نصفها بأنها كدح وشقاء، فهي تعني حدوث مرض معنوي أعراضه هي دوام اشتهاؤ الترفيه، والعجز عن إظهار أي اهتمام بأمور الحياة العادية والأعمال الضرورية لتسيير الحياة، وأمور المجتمع الرتيبة.

والشخص الذي استفحل عنده الداء هو الشخص الذي تشبع - إلى حد ما - بفكرة أن الترفيه هو الشيء الوحيد الذي يجعل الحياة جديرة بالعيش.

(١) ص ٣٨ مبادئ الفن، تأليف: روبين جورج كولنجوود، ترجمة: د. أحمد حمدي محمود، مهرجان القراءة للجميع، مصر.

والمجتمع الذي تأصل فيه الداء هو المجتمع الذي يشعر فيه أكثر الناس
بمثل هذه المتغيرات في أغلب الأحيان.

وتأثير المرض المعنوي أو النفسي قد يكون قاضياً - أو غير قاض - على
الشخص الذي يعاني منه، فقد يدفع إلى الانتحار على أساس أنه المخرج الوحيد من
القرف من الحياة، وربما حاول هذا الشخص الهروب منه بالجوء إلى الجريمة، أو
الثورة، أو أية ناحية مثيرة، وربما لجأ إلى الانغماس في الشراب أو المكيفات، أو
سمح لنفسه بالاسترسال في التكاسل، أو الاستسلام في صمت لحياة لا يحدث
فيها أي شيء مثير للاهتمام - هذا بالنسبة للفرد - وهذه الأمراض المعنوية قد
يكون تأثيرها مهلكاً لأي مجتمع تتأصل فيه، فالمجتمع يمثل طابع الحياة المشتركة
التي يحياها أفرادها، فإذا زاد ضيقهم باتجاه هذه الحياة إلى حد شروعه في اتباع
اتجاه مختلف، فإن المجتمع القديم يموت، حتى إذا لم يلحظ أحد ميته... ولا ريب
أنه كان المرض الذي مات به المجتمع الروماني واليوناني...

ونفس المرض قد استشرى بيننا، ومن أعراضه: ما حدث من تضخم في
تجارة الترفيه لم يسبق لها مثيل، لملاقاة ما غدا نهماً لا يمكن إشباعه، وخاصة في
البلاد التي يكبح الناس فيها كدحاً شديداً، فيطالبون بحصة أكبر من الفراغ للتسلية
وخلق وسائل الترفيه، مثل: تناول المسكرات، والتدخين... إلخ لإماتة الأعصاب،
وسلب الوعي، وإبعاده عن مهام الحياة العادية المضجرة والمثيرة...^(١).

والاتصال بال جماهير علم تحته علوم جمة؛ حتى يمكن أن يقال عنه: إنه علم
العلوم، فهو يستخدم اللغة والسياسة والاقتصاد وعلوم الاجتماع والنفس وعادات
الشعوب، والطب والكيمياء والهندسة والجيولوجيا والفلك والشعر والأدب... إلخ، وبه
تستثار الشعوب، وتستنفّر، وتنتصر، وتهزم، لا سيّما حين تستخدم علومه للصيقة
به من إعلام ودعاية وحرب نفسية وإعلان وعلاقات عامة وتعليم، ولشدة تأثيره عمد
اليهود إلى تملك أكبر قدر من وسائله من صحف ومجلات وإذاعات ومحطات تلفزة
ووكالات أنباء ومطابع وشركات ورق... إلخ.

(١) من مبادئ الفن، تأليف: كولنجوود، ص ١٧٣-١٧٦ باختصار.

وعن خطره يقول باحث مدقق: «لكل فكرة مسار تاريخي تمضي فيه حملاً وولادة وانتشاراً وانحساراً وتطوراً وموتاً وبعثاً، ويحكم مسارها التاريخي مجموعة من القوانين الاجتماعية تدرج تحت علم قديم حديث، هو علم الاتصال بال جماهير.

والذين يملكون بعض أسرار هذا العلم يملكون سلاحاً رهيباً يستخدمونه في تحريك الجماهير لما يريدون من خير، أو شر، ويساعدهم على ذلك وسائل الإعلام المتعاطمة في قدراتها يوماً بعد يوم.

ولا جدال في أن جزءاً عظيماً مما تعانيه الإنسانية اليوم من تيه وضلال وغشاوة عقدية مصدره هذه القدرات التي امتلكتها وسائل الإعلام ومن يستخدمونها في تحريك الجماهير في شتى بقاع الأرض في سرعة متسارعة، وعنّف شديد؛ مما يعرض الإنسان المعاصر في كل يوم إلى كم هائل من الرسائل الموجهة نحو أفكار شتى عبر وسائل الإعلام المتداعية عليه من كل حذب وصوب.

ففكرة تزرع الشك، وأخرى تزرع اليقين، وأخرى للجريمة، وأخرى للأدب والشعر والنثر... إلخ.

وهذا الهجوم من شتى الجهات يشنت الفكر، ويبدد الجهد، ويزرع الحيرة، ويوقع المسلم في التناقض بين الواجب الشرعي، وما توحى به هذه الأفكار من تحلل من الواجب الشرعي، ويتحمل الإنسان في العادة قدراً من الضغط الفكري المنهال عليه، ثم يفقد بعد ذلك القدرة على أن يتبين الأشياء والمفاهيم؛ ليصل في النهاية إلى (متوسط فكري رديء) وأردأ ما يكون هذا المتوسط ما هو موجود في بلادنا النامية التي تعيش في بيئة قديمة اتصلت بحضارة معاصرة، فأصابها الانبهار مما أفقدها التوازن...

ويلجأ بعض المسلمين والغربيين في مواجهة ضغوط وسائل الإعلام إلى مقاطعتها، ونحن نعرف أن بعض الإسلاميين، وبعض الغربيين يقطعون التلفزيون، ولا يدخلونه بيوتهم؛ درءاً لخطره، وتقليلاً من الضغط الإعلامي المنهال عليهم، والذي يسبب للبعض إجهادات نفسية لا يقوون على احتمالها، ومن ثم يقللون من التعرض لها، فلا يقرأون جرائد، ولا يستمعون إلى نشرات

الأخبار، ويفصلون أجهزة التليفون.. فلا يسمعون ولا يُسمعون، والحق أننا يجب ألا نستنهين بآثار هذا الضغط الإعلامي على شخصية الأمة سلباً وإيجاباً، ولا جدال أننا في حاجة إلى دراسات متصلة حول الضغط الإعلامي كماً ونوعاً.

وعلينا أن نقدر مدى الجهد الذي بذله العلماء والمربون ليصلوا إلى طرائق حديثة لوسائل التعليم ومناهجه، ثم نتدبر الممارسات الإعلامية وآثارها الهدامة لهذه الجهود، كما يقال: يد تبني، وأيدي تهدم، والمحصلة لا شيء.

وقد تركت أجهزة الإعلام في أيدي قطاعات تسوسها لتصل بالأمة المستسلمة لهذا الطوفان الإعلامي إلى الوسط الرديء للقيم والفكر، وللاجتماع، ولطرائق الكسب وأساليب التعامل.

وفي المقابل توجد تيارات واعية تحاول بشق الأنفس أن تشق طريقها لإخراج أمتنا من هذا الوسط الرديء، ولكنها لا تملك إلا النزر اليسير من وسائل الإعلام^(١).

وإذا عدنا إلى التوصيف العلمي لوظائف الاتصال بال جماهير لوجدنا - كعلم - خيراً محضاً. ومنها:

- تربية النشء تربية صحيحة.
 - تبصير الجماهير بما وراء تصرفات الحكومات، وإعلام الحكومات بمشاكل الجماهير الواقعية، وهي تقديم ما يقدم دون زيف أو خرافة.
 - النقد والتعليق، وهو تمكين كل من له قدرة على النقد بوسائل صحيحة يملكها أن ينقد.
 - الدفاع عن الإسلام، وهداية الناس إليه.
 - الترفيه، ولكن بما لا يفسد خلقاً، أو يضيع وقتاً.
 - الإعلان عن السلع بوصف ما فيها وصفاً دقيقاً.
- إن لوسائل الاتصال وظيفة شريفة، فهي في خدمة الأمة ودينها تجاهد

(١) من مقدمات البعث الحضاري، ص ١٨، ١٩، أ. د. سيد دسوقي حسن.

جهاداً شرعياً؛ لأن الدال على الخير كفاعله، ومن سن سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة.

وفي عالمنا الإسلامي يتخذ بعض المتأثرين بالأفكار غير تامة النضج طريق العزلة الفكرية عن وسائل الإعلام كلها، ويتخذون لأنفسهم مصادر خاصة تصوغ أفكارهم، وتصنعهم على طريقتها؛ لتحيمهم مما يحيط بهم من فكر رديء.

ولا جدال في أن هذا المنهج في مواجهة تيار الإعلام سوف يعرض أصحابه لإجهادات نفسية واجتماعية بالغة، وهو اختيار يبدو سهلاً في تطبيقه، ولكن آثاره على الذين يتخذونه غالباً ما تكون مدمرة للغاية، وخاصة عندما تختلف الأسس الفكرية بين التيارات الجانية، وبين المتوسط الفكري السائد اختلافاً بيناً.

فالبينة الفكرية في مجتمع ما تطبع أفكاره بطابعها الخاص، وتهيمن عليه هيمنة ظاهرة وباطنة، ولا يمكن إلغاء آثارها في النفس بإعلان الفرد، أو الجماعة سخطاً على الفكر السائد، ورغبة في فكر أرقى وأسمى، فإن هؤلاء لو استطاعوا اعتزال وسائل الإعلام فلن يستطيعوا اعتزال الشعب الحامل لهذا المتوسط الفكري، ومن ثم فهم يتعرضون لهذا الفكر من جانب الاتصال بأمثهم، وقد حاول بعض المسلمين في الغرب اتخاذ الاعتزال سبيلاً للتخلص من آثار وسائل الإعلام، ولكنها في النهاية أحاطت بأسرته، وأدركها طوفانها، وكان الاعتزال هو جبل ابن نوح الذي لا يعصم من الطوفان الكاسح^(١).

وإلى هؤلاء المعتزلين لمجتمعاتهم، أو الراغبين في اعتزالها نسأل: هل تستطيعون تملك بنايات خاصة بكم؟ هل يمكنكم تملك مدن خاصة بكم؟ هل لكم شوارع خاصة ومدارس خاصة وجامعات خاصة ومزارع خاصة وإذاعات وتلفازات ومحلات ومدارس خاصة... إلخ، وطبعاً يستحيل أن يحدث ذلك، ويتبعه مستحيل أن تعتزل المجتمع الذي تعيش فيه فتؤثر وتتأثر.

(١) أ. د. سيد دسوقي حسن، من مقدمات البعث الحضاري، ص ١٩، ٢٠.

المبحث الثاني

من أساليب التجديد في الدعوة

هناك أساليب كثيرة يستلزمها التجديد في الدعوة الإسلامية، وسوف أشير إلى طائفة منها - على سبيل الإشارة، لا الحصر - ومنها:

١ - المسلمون خارج بلاد الإسلام:

المسلمون خارج بلاد الإسلام إذا تمسكوا به هم مرآة لتعاليمه في نقاء العقيدة، وإخلاص العبادة، وحسن المعاملة، وسمو الأخلاق، ونظافة السلوك، وصفاء الأرواح، وهدوء الطبع. ولا بد أن يكونوا كذلك؛ لأن كونهم كذلك أجدى من مئات المدارس والمدرسين والوعاظ، وهم بهذه الكينونة أكبر دعوة للإسلام.

فحين يرى الناس الإسلام من خلالهم في أعمالهم وجوارهم، ورحمتهم وتراحمهم؛ يقتدون بهم، أو يسألونهم عن دينهم، ويتجهون لمعرفة معرفته بالدراسة أو بالتلقين، فيصبحون دعاة بالعمل، والدعوة بالعمل أكثر بركة، وأغزر نفعاً من دعوة باللسان لا يصحبها عمل، وقديماً قالوا: (عمل رجل في ألف رجل خير من قول ألف رجل في رجل)؛ لأن الناس يؤثر فيهم رؤية الأعمال، وبعض الأقطار التي انتشر فيها الإسلام بالقذوة أكثر عدداً مما انتشر الإسلام فيها بالفتح.

ومن المفيد: الاستفادة من وجود مسلمين في بلاد غير إسلامية يراد ممارسة الدعوة منها؛ لأنهم أخبر وأعرف بطباع أهلها، ما ينفرهم وما يحبهم، سواء مارسوا الدعوة بأنفسهم أو كانوا مستشارين لمن يمارس؛ لأن ذلك أدهى للنجاح، وأعون على تجنب الفشل، ونحن في حاجة ماسة لعملهم هذا؛ لتغيير صورة الإسلام وأهله في نظر أهل الغرب، والتي كرس في الأذهان من خلال دعاية لئيمة ضد الإسلام والمسلمين قام بها الاستعمار العالمي بأجهزته والشيوعية والصهيونية لآماد متطاولة دون مقاومة تذكر.

والأمر محتاج إلى تضافر الجهود ورأبها وتنظيمها، وبثها في أرجاء الأرض، متبينة الإسلام سلوكاً ودعوة، مظهرة مآثره وأفضاله على الإنسانية

حتى تحيا صورتنا وتضيء. كما يستفاد ممن أسلموا من أهل هذه البلاد في دعوة مواطنيهم، وهم كثر بحمد الله، وفي بعضهم غيرة محمودة، وحماس ملحوظ، وعلم غزير.

ولعل من المفيد التعرف على ما يفعله المبشرون حين يجعلون من بعض المتنصرين مبشرين لأهلهم، فقد جاء في كتاب التبشير والاستعمار ما يلي:

«ثم إننا نختار منهن أولئك اللواتي يرجى أن يُمرَّنَّ أكثر من سواهن؛ ليكن بدورهن مبشرات بين قومهن، ولقد اعتنق الفرنسيون - أيضاً - هذا الرأي في التبشير بين النساء»^(١).

والمتصفح للأساقفة في إفريقيا يجد كثيراً منهم أفارقة، والمطالع لكتاب «الغارة على العالم الإسلامي» لشاتليه يرى أسماء متنصرين صاروا منصرين؛ لأن الكنيسة في الغرب بعد افتضاح أمرها في التبشير تؤثر أن تتوارى وراء أبناء البلاد التي يراد التبشير فيها، وخاصة بعد شيوع الكراهية للرجل الأبيض، وهم يقولون: دعوا أحد أفرع الشجرة يقطعها، وكثير من الكتابات الهاجمة على الإسلام صدرت من مسلمين، سواء أكانوا متبرعين لخلل في أفكارهم، أو مستأجرين ليقوموا بالهجوم بدلاً من ساداتهم.

٢ - عمل رحلات لبعض شباب الدعوة:

يمكن تدبير بعض المال من جمعيات إسلامية، أو من المحسنين المسلمين لتمويل رحلات لشباب الدعوة خارج بلاد الإسلام، ويختارون اختياراً دقيقاً ليكون هناك احتكاك مباشر بين الشباب المسلم، ومن يراد دعوتهم، على أن يسبق هذا دورة يشترك فيها مقيمون في الغرب، ليزودوا هؤلاء الشباب بالعلم والخبرة، ويبينوا لهم المقبول والمرفوض عند القوم.

ويوصي هؤلاء الشباب باستقامة السلوك، والأدب العالي، والحرص على

(١) التبشير والاستعمار، ص ٢٠٥.

الظهور بالمظهر اللائق بهم كمسلمين؛ لأن المسلم العامل بدينه خارج بلاده هو أكبر دعاية للإسلام.

كذلك تفعل بعض الجامعات الأجنبية بطلبة فروعها في البلاد الإسلامية، فتأخذ بعضهم لزيارة الفاتيكان، والكرملين، ولندن وباريس بحجة دراسة عادات وسلوكيات أهل هذه البلاد، وتؤهل المتفوقين منهم لاستكمال دراستهم ببلدها الأم، وإغراء النابغين بالإقامة هناك، وقد حدثني بعض طلبة الجامعة الأمريكية بذلك، وقد استنّت بعض الجمعيات في بلاد عربية هذه السنة الطيبة، وبعض الجماعات في بعض البلاد الإسلامية يخرج الناس فيها على نفقتهم في سبيل الدعوة، كما وسعت بعض الجمعيات نشاطها ليشمل نشاطات: رياضية وثقافية وإعلامية.

٣ - السماح لغير المسلمين بمخالطة المسلمين:

هناك حوائل نفسية وعقلية ودينية زرعها أعداء الإسلام في عقول الناس عن المسلمين، فصوروا الإسلام وأمته بصورة دميمة، وقد مرت مراحل سادت فيها تلك الصورة المشوهة، وكانت تغنى خلالها ملاحم ذم الإسلام ونبيه وأمته على الربابة^(١)، ومنها: ما ذكر في الكوميديا الإلهية لدانتى عن النبي ﷺ وأصحابه، وصالح الدين الأيوبي... إلخ.

ولكن هذا أخذ في الانحسار نوعاً ما مع سهولة المواصلات، وانتشار وسائل الإعلام وكثرة الرحلات إلى بلاد الإسلام، فتغيرت الصورة إلى حد ما، ولكن بقيت نظرة الاستعلاء الغربي إلى المسلمين، ولذلك لا بد من حدوث احتكاك مباشر بين المسلمين وغيرهم، حتى يعرفونا عن كذب، وذلك مفيد لنا من ناحيتين:

الأولى: أن نعرف غيرنا على طبيعته، دون زيف، أو تكلف، حين يطرح حجاب التحفظ.

(١) انظر: تراث الإسلام، ج ١، البحث الأول، ماكسيم رودنسون. سلسلة عالم المعرفة تصدر في الكويت، العدد ٨.

والثانية: أن يعرفنا غيرنا معرفة صحيحة، فتنغير صورتنا عنده، ولو لم يسلم فإنه يكفي أن يعلموا أن أخلاقنا أسمى، وعيشنا أفضل، ونفوسنا أصفى، وأنهم أحوج ما يكونون إلى روحيتنا بعد أن سيطرت عليهم المادية المدمرة، وقد ذكر صاحب كتاب «التبشير والاستعمار» ما يلي:

«فمن أوجه النشاط الاجتماعي التي تستغلها في التبشير (جمعية الشبان المسيحية، وجمعية الشابات المسيحيات): المخيمات، ومؤتمرات الطلاب، والألعاب الرياضية، وبيوت الطلبة، وهي كلها مظاهر بريئة مفيدة، ولكنها تحمل في طياتها التبشير...».

يقول إديسون: إن عوالم التعليم المسيحي في مصر تزيد قوة على قوتها بمؤسستي جمعية الشبان المسيحيين، وجمعية الشابات المسيحيات، وهما مؤسستان غير طائفتين. بمعنى أنهما تقبلان أعضاء من جميع الأديان والمذاهب، وهذا لا يعني أنهما لا تشتغلان بالأمور الدينية، وفي هذا اقتراب من المسلمين^(١).

وهذا النص يوضح أن هذا الصنيع قصد به الاقتراب من المسلمين، ولو لم يدعوا للتنصر، كذلك نحن نسمح لغيرنا بمشاركتنا أنشطتنا، وندعه ليفاضل بين ما عندنا وما هو عليه، وقد كانت المباريات الرياضية من الأسلحة التي استخدمتها مدارس التبشير في فلسطين؛ لتجعل المسلمين يقبلون بوجود اليهود في بلادهم، وقد (ذكر ويلسن كاش أن في القدس مدرستين عالميتين تديرهما ثلاث إرساليات مختلفة إدارة مشتركة هما: مدرسة البنات العالية، والكلية الإنجليزية).

إن اليهود والعرب والنصارى - لاحظ استعمال لفظ العرب بدلاً من المسلمين - يلعبون في ملاعب هذه المدرسة كرة القدم، ويبدو في اللعب من ضروب التعاون ما يساعد على أن يخلق لهم نظرة جديدة إلى مشاكلهم القومية الحاضرة.

إن القاريء ليجد في هذا القول قرينة ظاهرة تدل على أن مدارس التبشير كانت تعمل على أن تهيب الطلاب العرب من المسلمين والنصارى في فلسطين

(١) التبشير والاستعمار ص ٢٠١.

ليقبلوا بنزول اليهود في الأرض المقدسة، ولعلمهم لم يفعلوا ذلك حباً في اليهود، بل إضعافاً لنفوذ المسلمين في هذه البقعة المقدسة من الأرض، وتوصلاً إلى زيادة نفوذهم في الشرق من هذا السبيل.

ويظهر أن الألعاب الرياضية كانت تخدم قضية المبشرين، وتخدم الصهيونية في فلسطين خدمة عظيمة، حتى اندفعت مدارس التبشير تؤله الروح الرياضية، وتشجع التسامح في ميادينها إلى أبعد الحدود، تسامحاً كان يراد منه قتل الشعور القومي الثمين من طريق التسلية.

قال ولبرت سميث: إن الألعاب تبرهن على أنها من أحسن الوسائل لتقريب وجهات النظر بين المختلفين، بل بين المتعادين.

لما أعلن العرب إضرابهم العام في القدس عام ١٩٢٩ - احتجاجاً على ممالة الإنجليز لليهود - قامت جمعية الشبان المسيحية بحفلة تخدم بها التعاون الودي بين العرب واليهود، فأقامت مباراة في رياضة التنس كان اللاعبون فيها مسلمين ويهود، وكان الحضور لفيفاً من جماعات مختلفة فيهم الفلسطينيين والإنجليز والأمريكيون والألمان، وسادت الروح الرياضية، فكان اليهود يحيون كل نجاح يصيبه اللاعبون العرب، وكان العرب يردون التحية للاعبين اليهود إذا أصابوا نجاحاً، وتبع المباراة حفل شاي حضره نحو خمسين من الفلسطينيين، والإنجليز والصهيونيين نعموا ساعة بكرم مضيفهم النصارى^(١).

هكذا يتبين لنا أن الرياضة يمكن أن تكون سبيلاً للتعارف، وأن أعداء الإسلام استخدموها كما أشار الكاتب في قتل الشعور القومي.

كيف نواجه معارضينا:

العداوة للإسلام مستعرة، وأعداؤه لا ينامون، ومؤامراتهم مستمرة، ولن يجدي في مواجهتهم الصراخ، ولا التشكي من ضراوة هجومهم، إنما المجدي مواجهتهم بقلوب تحمل هم الإسلام، وتعمل على تنضير وجهه، سواء أكان ذلك

(١) المرجع السابق، ص ١٨٢، ١٨٣.

داخل بلاد الإسلام أو خارجها، يقول أحد الحاملين لهذا الهم: «والذي صاحبني طول حياتي حب للإسلام، أحمل همه، وأحمل اسمه، وأعمل له، ودلّنتي زيارتي على أن للإسلام في أمريكا فرصة حقيقية وتاريخية إن أضعناها فهي شيمتنا، وما أكثر ما ضيعنا، وإن انتهزناها فربما أفضى ذلك إلى منعطف تاريخي يفيد أمريكا، ويفيد المسلمين وقضاياهم. وأفضل خدمة للإسلام - في أمريكا وفي غيرها من البلاد، مسلمة أم غير مسلمة - هو أن يعيش الإنسان بإخلاص، ويحسن عرضه على الناس»^(١) ولمواجهة معارضينا أساليب كثيرة منها:

أولاً - الهدوء وعدم التهجم:

ليس بالأصوات العالية، ولا بالضجيج والصراخ تنتصر المبادئ، وقد علمنا الإسلام جملة آداب حملتها آيات القرآن الكريم، منها: قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٥).

وقد حددت الآيات سبل مواجهة معارضينا بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن والدفع بالتي هي أحسن، والصبر والبصيرة. وكلها أمور لازمة عند مواجهة الخصوم، ودعوة غيرهم.

(١) بهذا ألقى الله، أ. د. حسان تحتوت، ص ١٩، ط. ثانية، طبع مؤسسة فهد المرزوق.

(٢) سورة النحل، ١٢٥.

(٣) سورة فصلت: ٣٤-٣٥.

(٤) سورة يوسف: ١٠٨.

وهذه المواجهة قد تكون في أرض الإسلام بين المسلمين، أو خارج أرضه بين غير المسلمين، ففي المواجهة الداخلية يوجد ميزان نزن به الأفكار، وهو ميزان الحلال والحرام، وهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالصحة والخطأ، والنفع والضرر، والحق والباطل. فهذا حلال. أي صحيح نافع حق، وهذا حرام. أي خطأ ضار باطل، وينبغي علينا التثبت من أحكام الحلال والحرام، والتشبث بالحلال، وألا تتميع المفاهيم لدينا، وألا نهادن في إثبات ما اعتقدنا حله، ويعيننا في ذلك: (١) - أسرة واعية، (٢) مدرسة فيها مربون واعون فاهمون، (٣) مجتمع صحيح صالح، به صحبة تعين على نصرته الحق، والتمسك به.

وثمره هذا الوسط: هي إيجاد مواطن فاهم واع. يقف على أرض صلبة من دينه وفكره، لا ينساق وراء الأباطيل والأوهام، ومهمتنا توسيع نطاق هذا الوسط؛ ليكون منطلقاً لإيجاد مجتمع أكثر وعياً، ولاؤه لربه ووطنه. فهو مجاهد ينود عن دينه وأرضه وعرضه وماله ودمه.

وأما المواجهة خارج نطاق الوسط الجيد فتؤدي إلى:

تغيش الرؤى، وعدم القدرة على وزن الأفكار وزناً صحيحاً، ويترتب عليه:

- أ - ضياع الهوية.
- ب - ضياع الوقت.
- ج - ضياع المال.
- د - التبعية بكل أشكالها.
- هـ - تمييع الأخلاق، والترهل الفكري، والتيه النفسي، والتمزق الاجتماعي، والإخلاق إلى الأرض بمباهجها ومفاتها، ونسيان الآخرة، والرضى بالدون من كثير من الأشياء.

إنه باختصار الانسلاخ من الآيات، واتباع الشيطان والغواية، وكلها أمراض تصيب من يعيشون في مجتمعات سيطر عليها الفساد. فأما المواجهة خارج بلاد الإسلام فينفع فيها:

ثانياً - بساطة الاستدلال:

يمكن لقاريء القرآن الذي يريد الاستفادة منه في الدعوة أن يتعلم منه كيف يناقش ويختصر المسافات بينه وبين خصمه، ويوفر الوقت والجهد والعداوة ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾^(٣). وآيات كثيرة جداً يمكن لمريد النجاح في الدعوة أن يستفيد منها. وفي عرض شيق لجعل الفطرة دليلاً على أركان العقيدة يقول الدكتور حسان حنوت:

«ونعود لخضوع الإنسان لقانون المساءلة، فنجد من بين الناس من يعيش طول حياته في الخطأ والخطيئة، وربما استمتع بهما أكبر المتعة، ثم تنتهي حياته فيموت. قد يكون استطاع أن يستخفي من القانون، أو يكون هو أكبر من القانون، ونجد بالمقابل أن من بين الناس من يعيش مجاهداً من أجل الحق، وقد يشقى في سبيل ذلك، ويعاني، ويتجرع الألم والعذاب، ثم تنتهي حياته، فيموت.

هل هما إذن سيان؟ وأين تلك المساءلة التي نتحدث عنها، وهل انتهى ذاك وهذا بالموت إلى مآل واحد؟

شيء في فطرتنا، وجوهر كياننا يقول: مستحيل، فلا يمكن إذن أن يكون الموت هو النهاية ولا بد أن ما بعد الموت مرحلة أخرى تتم فيها المساءلة، ويعطى فيها الجزاء، ويستقر فيها الميزان، ولو كان الموت هو النهاية لكانت دعوة مفتوحة لكل من وجد متعته في شر أن يفعله.

(١) سورة المائدة: ١٨.

(٢) سورة الأنعام: ١٠١.

(٣) سورة السجدة: ١٨.

ولو كانت الشطارة هي الاختباء من القانون، أو التحايل عليه، لما كان هناك شيء اسمه الضمير، والإنسان بلا ضمير هو حيوان، بل أضل.

ولو كان الموت هو النهاية لكان ذلك تناقضاً مع النظام الدقيق المحكم الذي يتغشى الكون جميعاً، فنحن نعيش في كون من المعادلات المتوازنة المتراكبة بدقة تامة، والتي يؤدي أصغر اختلال فيها إلى كارثة كونية محققة.

بعد هذه الدنيا إذن بالتأكيد دار تتلوها هي الدار الآخرة»^(١).

وفي إحدى محاضرات الشيخ الشعراوي يرحمه الله سئل لماذا يباح للمسلم الزواج من الكتابية ولا يباح للمسلمة الزواج من الكتابي؟

وأجاب الشيخ بقوله: إن المسلم يعترف بنبوّة موسى وعيسى عليهما السلام، ويحترم دينهما، وبذلك تكون الكتابية في حرز حصين من الاحترام. وأما الكتابي فلا يعترف بنبوّة محمد ﷺ، فكيف تكون المسلمة آمنة عند رجل لا يعترف بدينها الذي تدين به، وزاد الدكتور تحتوت: ماذا لو كانت المسلمة صائمة والكتابي مفطراً، وأراد منها ما يريد الزوج من زوجته؟ إنه استدلال بسيط ومقنع.

وفي الاستدلال البسيط الهاديء إقناع في بشاشة وسهولة ويسر، فأما الصراخ والتفكير، والتوعد بالويل والثبور فينفر أكثر مما يحب، ويباعد أكثر مما يقرب، يقول الإمام ابن الجوزي: «من البله: أن تبادر عدواً، أو حسوداً بالمخاصمة، وإنما ينبغي إن عرفت حاله أن تظهر له ما يوجب السلامة بينكما. إن اعتذر قبلت، وإن أخذ في الخصومة صفحت، وأريته أن الأمر قريب، ثم تبطن الحذر منه، فلا تثق به في حال، وتتجافاه باطناً مع إظهار المخالطة في الظاهر، فإذا أردت أن تؤذيه، فأول ما تؤذيه به إصلاحك لنفسك، واجتهادك في ذلك ومن أعظم العقوبة له: العفو عنه، وإن بالغ في السب فبالغ في الصفح تنب عنك العوام في شتمه، ويحمدك العلماء على حلمك، وما تؤذيه به من ذلك، وتورثه به

(١) بهذا ألقى الله ص ٢٩، ٣٠، أ. د. حسان تحتوت.

الكمد الظاهر وغيره من الباطن أضعاف، وخير مما تؤذيه به من كلمة إذا قلتها له سمعت أضعافها، ثم بالخصومة تعلمه أنك عدوه، فيأخذ الحذر، ويبسط اللسان، وبالصفح يجهل ما في باطنك، فيمكنك حينئذ أن تشتفي منه، أما أن تلقاه بما يؤذي دينك، فيكون هو الذي اشتفى منك.

وما ظفر قط من ظفر به الإثم، بل الصفح الجميل.

وإنما يقع هذا ممن يرى أن تسليط عدوه عليه إما عقوبة لذنب، أو رفع درجته بالابتلاء، فهو لا يرى الخصم، وإنما يرى القدرة^(١).

ثالثاً - تمويت ما يخشى من انتشاره:

وهو ما يسمى لدى الإعلاميين التعتيم الإعلامي، أو هو بعض ما أشارت إليه الآية: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٢).

أو هو الإغضاء، بمعنى الرؤية، أو السماع، ثم عدم التعليق، وكأن ما كان لم يكن، فإن كثيراً من الأمور التي اشتهرت كان وراءها من جعلها تشتهر، ولو تركت دون تعليق لوئدت في مهدها، ومن ذلك: ما حدث «من سنوات حيث ألف المدعو سلمان رشدي كتابه.. (الآيات الشيطانية) وقامت المظاهرات صاحبة وعاصفة، فاشتهر الكتاب، وكان ذلك أكبر دعاية له، ومما ذكرته الصحف في أمريكا أن السمسار بين رشدي، وشركة النشر طلب مبلغاً كبيراً، فإنه أعد ترجمة بالفارسية له، وأوفد من وضعها في يد ابن الإمام الخميني، واثقاً من أن الضجة التالية سترفع المبيعات إلى عنان السماء، وصدر حكم في إيران بإعدام سلمان رشدي. بينما اعترضت قيادات إسلامية أخرى على هذا الحكم، فبان أن المسلمين أمرهم ليس شورى بينهم، ولم يقتل سلمان رشدي، ولكن الذي قتل كان اثنين وعشرين مسلماً باكستانياً من جراء الصدام بين الشرطة، وبين جماهير المتظاهرين الغاضبة في شوارع كراتشي.

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي، ص ٢٧٢، دار الفكر، ط. خامسة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

(٢) سورة الأعراف: ١٩٩.

ولو كان الكتاب - على سبيل الفرض قد انصب على اليهود، ونال منهم، ومن دينهم - لكان الحال غير الحال، ولسحب الكتاب من الأسواق رغم أنف الذين يتشدقون بحرية الكلمة، ولوضعت موضع التنفيذ خطة مدروسة للضغط على كافة السلطات في كل البلاد بوسائل ضغط يملكونها، ونملك مثلها. لكنهم يستعملونها، ونحن لا نستعملها، وتكون حصتنا ردة فعل عاطفية نرفع فيها العقائر، ونتشنج غاضبين، فإذا نفسنا عن صدورنا ما احتشد فيها سكنا، ثم لا فكر، ولا خطة، ولا تناول عقلي، ولقد أصبح هذا المسلك ديدنا، ونحن نعالج جل قضايانا»^(١).

(١) بهذا ألقى الله، ص ٤٥.

المبحث الثالث

التجديد في إعداد البرامج

هناك سباق محموم في السيطرة على اتجاهات الجماهير، وهو سباق تستخدم فيه برامج غير أخلاقية، والذي يدير زر الرأي يرى مصداق ذلك: بطوناً عارية، وصدوراً مثلها، وشباباً من الجنسين متلاصقة أجسادهم، وأغاني ورقص.... إلخ مسلسل الهدم، ولا بد في مواجهة مثل هذه البرامج أن تكون لدينا برامج تجتذب الجادين، وتصح مسار غيرهم، حتى لا تترك الساحة للهابط، وهنا لا بد من قدح زناد الفكر للابتكار، والاستفادة من أصحاب الخبرة، من أصحاب التوجهات المعقولة، على أن يكون الدافع نية صحيحة تصاحبها همة عالية.

يقول الإمام ابن القيم: «المطلب الأعلى متوقف حصوله على همة عالية، ونية صحيحة، فمن فقدهما تعذر عليه الوصول إليه، فإن الهمة إذا كانت عالية تعلقت به وحده دون غيره، وإذا كانت النية صحيحة سلك العبد الطريق الموصلة إليه. فالنية تفرد له الطريق، والهمة تفرد له المطلوب، فإذا توحد مطلوبه، والطريق الموصلة إليه كان الوصول غايته، وإذا كانت همته سافلة تعلقت بالسفليات، ولم تتعلق بالمطلب الأعلى، وإذا كانت النية غير صحيحة كانت طريقه غير موصلة إليه.

فمدار الشأن على همة العبد ونيته، وهما مطلوبه وطريقه، ولا يتم ذلك له إلا بترك ثلاثة أشياء:

- ١ - هجر العوائق التي تعوقه عن أفراد مطلوبه وطريقه وقطعها.
 - ٢ - العوائد والرسوم والأوضاع التي أحدثها الناس.
 - ٣ - قطع علائق القلب التي تحول بينه وبين تجريد القلب بالمطلوب.
- والفريق بينهما - أي بين العوائق والعلائق - أن العوائق هي الحواديق الخارجية والعلائق هي التعلقات القلبية بالمباحات ونحوها.

وأصل ذلك: ترك الفضول الذي يشغل عن المقصود من الطعام والشراب والمنام والخلطة، فيأخذ من ذلك ما يعينه على طلبه، ويرفض منه ما يقطعه عنه أو يضعف طلبه»^(١).

إن التعريف بالله الواحد، ودينه الحق قضية لا تعالج بفتور واسترخاء، وإذا كان هناك من يعتبرون الإلحاد نكاء وتقدماً، ويبدلون في سبيل نشره جهوداً مضنية، فإن حملة الإسلام سيكونون أطول نفساً، وأشد غيرة، وأرسخ قدماً، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾^(٢).

لكن كيف يؤدي الإعلام هذه الوظيفة الكبيرة؟

إننا لا نعرض طريقة واحدة لهذا الأداء بداهة، فما أكثر صور العرض. وصدق النية يدفع إلى الاكتشاف والاختراع.

إنه يمكن تقديم درس في التوحيد، وتمجيد الخالق، لا بقراءة نظرية تقليدية، بل ببضع دقائق في التلفاز. تبرز فيها على الشاشة الصغيرة صورة كونية فخمة تتجلى فيها مظاهر القدرة العليا، وتصحبها كلمات سريعة موجزة تدل على أن العلم يقود إلى الإيمان، إن أجهزة الإعلام في العالم كله تخدم مباديء ومصالح معينة.

والإعلام الإسلامي يرتبط بمباديء ومصالح معروفة المصدر والنسبة، فلا وجه للغرابة إذا كانت تعاليم الدين لحمته وسداه..

والإعلام الآن حتى في نشرات الأخبار، وسوق الأحداث يكشف عن فلسفته ومذهبه.. وهو في مواد الثقافة والترفيه يضيفي على الحياة لونه الخاص، ويعمل بذكاء لتذكير الناسي، وتعليم الجاهل.

وأجهزة الإعلام حين تنهض بواجبها تغرس العقائد والعبادات، وتعلي ديننا

(١) الفوائد لابن قيم الجوزية، ص ١٠٦، ١٠٧، ط. دار الحديث بالقاهرة.

(٢) سورة البقرة: ١٦٥.

وترد على أعدائنا رداً غير مباشر، في هدوء^(١). ولنتأمل تفسير الشيخ الشعراوي كيف أقبل الناس عليه، وبرامج عمرو خالد، والشيخ الغزالي، كيف سيطرت على الجماهير.

إن الإسلام الذي أنزل على محمد ﷺ هو خلاصة الأديان التي أنزلت على جميع الأنبياء؛ ولذا وجب أن يكون الجهد المبذول في التعريف به كفاء عظمته، والفكر لإبرازه لا يدخر منه شيء لتنضير وجهه، وتعريف الناس به، ولو بذل في نصره عشر ما يبذل من أجل الباطل لعرف به العالم أجمع، «ولو كان للإسلام رجال يحسنون عرضه كما نزل في أصوله الأولى لكان الإسلام دين الحاضر والمستقبل على سواء، ولكن الفكر الإسلامي وقع في محنة رهيبة...

إن أعظم شيء في رسالة الإسلام: احترامها للعقل البشري، وحفاوتها بالعلم الطبيعي، وبنائها اليقين على النظر الصائب في ملكوت الأرض والسماء، ولا يوجد كتاب سماوي حث العقل على النظر، وقاد العلم في مضمار البحث كهذا القرآن.

إننا بمنطق القرآن نرفض الظنون، ونخضع لليقين ونرفض الأوهام، ونستكين للحقيقة وحدها.

إن التدين الذي تعلمناه من كتابنا ليس تحميل العقل ما لا يطيق، ولا الهيمنة في عالم الأخيلة.

إنه تدين زكي عملي^(٢).

ومن البرامج المقترحة، إلى جانب الموجودة:

كيف عرض الصحابة الإسلام على الأمم، يقول الشيخ محب الدين الخطيب:

(١) الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر: الشيخ محمد الغزالي، ص ١٨٢-١٨٤ بتصرف يسير، ط. أولى، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، دار السلاسل.

(٢) ص ١٦٠-١٦١ من: قذائف الحق للشيخ محمد الغزالي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٣٩٣هـ.

«وميراثنا الثالث من الموارث التي صارت إلينا عن الصحابة: حسن عرضهم هذا الإسلام على الأمم ممثلاً في أخلاقهم الإسلامية السليمة، وأعمالهم الجليلة الرحيمة، فحببوه بذلك إلى الناس، وعرفوهم به من طريق القدوة.. فكان ذلك سبب دخول الأمم في الإسلام إلى أقصى آفاق المعمورة المعروفة في أزمنتهم، ومهما تنبض قلوبنا بشكرهم، والوفاء لهم، والثناء على ما نشروا في الدنيا من ألوية جهادهم لن نوفيهم عشر معشار ما يستحقون، وإلا فأين هي المؤلفات العصرية التي كان ينبغي أن تكون في أيدي الشباب في جميع أقطار الإسلام، والتي تجعل القاريء كأنه معاصر لهم، مرافق لكتائبهم، مشارك بمشاعره ومداركه، وخفقات قلبه في كل نصر أحرزه الإسلام في الدنيا على أيديهم، عليهم رضوان الله»^(١).

ومن التجديد في البرامج: برامج عن قصص القرآن، وهي موجودة، ولكن يتأمل أن تكون أكثر، ولعل أحلاها ما يقدم في تليفزيون أبو ظبي.

وقد كنت شاهدت بعض التمثيليات في حلقة واحدة عن بعض قصص السنة. كما يدخل فيه بعض المسلسلات عن الشخصيات الكبرى في الإسلام كأئمة الفقه، وأئمة الحديث، وأئمة الحكم: كعمر بن عبدالعزيز، وهارون الرشيد، وبعض المحدثين، كالشيخ الشعراوي، ثم برامج عن الواقع بما فيه من خير وشر. مع التركيز على العواقب؛ ليكون في ذلك ذكرى وعبرة. والواقع لا يخلو من العظة، والله يعظنا ببعضنا، والسعيد من اتعظ بغيره. على أن يكون ذلك في لفظ رشيق، وإخراج أنيق: «والعرض الإسلامي الحريص على بث الحق، وإيثار السلام، ورفض الشحناء يستطيع أن يبرز تعاليم الإسلام في صور شتى، لعل أيسرها الخبر المجرد. لكن يكفي ذلك في عالم تبرجت فيه الدعوات وافتنّت فيه أساليب الاستهواء.

(١) ص ٧ من المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرافض والاعتزال للحافظ أبي عبدالله محمد بن عثمان الذهبي، تحقيق وتعليق: محب الدين الخطيب، ط. السلفية، ١٣٧٤هـ.

إن الحوار الذكي في قصة شائقة، أو تصوير الواقع في هذه القصة، أو الصورة الساخرة والنكتة البارة... أصبحت من وسائل البلاغ المبين. بل أصبحت وسائل محتومة لقوله تعالى: ﴿وَعَظُّهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾^(١).

وذلك ما لا بد أن تدركه أجهزة الإعلام الإسلامي. والإسلام دين متحرك سيال، لا يعرف الجمود في زمان، ولا مكان، والمسلمون مكلفون أن يبسطوا وجهة نظرهم مقرونة بالأدلة المقنعة، كما يجب عليهم معرفة ما لدى غيرهم بدقة وإنصاف، ثم ترك العقل الإنساني للمقارنة والحكم، وقد طلب القرآن من معارضي الدعوة أن يأتوا بما لديهم من أدلة على وجهة نظرهم. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢).

وذلك في جداله أهل الكتاب، وقد تكرر هذا مع المشركين، وفي قصة أهل الكهف: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمُ سُلْطَانٌ بَيِّنٌ﴾^(٣).

والسلطان البين: هو الدليل المقنع، ووجهة النظر المحترمة المدعومة بالدليل...

ومن هذا العرض يتبين المنطلق الذي يجب أن تنطلق منه أجهزة الإعلام الإسلامي، إن لديها ثروة هائلة من الحقائق الدينية والاجتماعية والسياسية، وهذه الثروة تحتاج إلى نكاء حاد في استكشافها وفي ترتيبها. كما تحتاج إلى لباقة واسعة في قرع الأذهان بها، أو تفتيح الأعين عليها، ولن يتم ذلك إلا

(١) سورة النساء: ٦٣.

(٢) سورة البقرة: ١١١.

(٣) سورة الكهف: ١٥.

بدراسة مستبجرة لما عند الآخرين، واستبانة واعية لكل ما يكون لديهم من وجهة نظر، وسر رضاهم بما عندهم، أو سخطهم على ما عندنا»^(١).

ولعل الغرب أحوج إلى الإسلام الآن من أي وقت مضى، وذلك لما يعانيه من أزمات روحية تتمثل في القلق والكآبة، وحوادث الانتحار، وجرائم القتل... إلخ، فاللهث وراء المادة والمتعة حول الإنسان إلى كائن مادي، والمتعة تغري بالمتعة، حتى يعبد الإنسان ذاته، فينجم عن ذلك قسوته على نفسه وعلى غيره، وتفسخ الأسر، وعدم اهتمام الأبوين بأولادهما، وهذا المناخ يساعد إلى حد كبير على الدعوة الإسلامية. «ولعل عرض الفكر الإسلامي في هذه المرحلة بالذات من مسار الحضارة الغربية يجيء في أوانه، فواضح تماماً أن حضارة الغرب المادية لم تغن الإنسان شيئاً، بل خلفته رغم السيارة والطيارة، والصاروخ، والتليفزيون، والبيت الوثير خاوي النفس، خالي القلب، لا تعرف روحه أين تهفو، وبمن تستعين.

هذا الفراغ المدوي في قلوب الغربيين ناتج - بطبيعة الحال - من فقدانهم الإيمان وإدارة ظهورهم للدين.

وليس ذلك بالتحليل العابر، بل تلك حقيقة ثابتة، فقد أشهر الغرب من عقود من السنين إفلاس دينه.. وقد أقفرت الكنائس من الرواد.. وبيعت الكنائس، وأجرت لتكون مراقص.. وقد نشرت مجلة تايم الأمريكية من سنوات على غلافها بالخط الكبير أن المسيح قد مات.. والمقصود موت المسيحية، وذلك بعد استطلاع تليفزيوني في الشوارع..

هذا المعنى - أي إفلاس الدين في الغرب - ما يزال يتردد في الصحف، وفي أجهزة الإعلام الجماهيرية عندهم دون حرج، وأضحى في نفوس الناس حقيقة ثابتة.. ولا يستطيع الإنسان أن يعيش بلا إيمان.

ومن هنا كان تلمس فلاسفة الغرب ومفكره للبديل الروحي الذي لا تكتمل

(١) ص ١٨٠-١٨١ من الدعوة الإسلامية، الشيخ محمد الغزالي.

الحياة بغيره، لم لا يحاول المسلمون الكشف عن دينهم، وتعريف الغرب به؟ فالأرواح هافية، والأفئدة متطلعة^(١).

النقد الذاتي:

في الطريق إلى الله درجات، ينتقل فيها السالك من درجة إلى أخرى، وقد تعرض له عقبات تعوقه عن المواصله: من هوى وشهوة ونفس أمارة، وشيطان من الإنس أو الجن، وهو مدعو في كل حركة من حركاته إلى انتباه ومجاهدة، فأما الانتباه فللتعرف على العدو، وأما المجاهدة فللتخلص من هذا العدو، وهو مدعو في كل مقام أو مدرج إلى اتهام نفسه بالتقصير دائماً؛ حيث يحول الرضى عن النفس عن التقدم أثناء الانتقال في المراحل العمرية من حال إلى حال.

ويجب أن تلازم المسلم الأحوال التي ذكرها علماء التربية الإسلامية واتفقوا عليها، رغم اختلاف اتجاههم، وهي: المجاهدة والمحاسبة، والتوبيخ والمعاندة والمعاقبة والمشارطة... إلخ.

ويجب على المسلمين إدراك أن أصل المعاصي الغفلة عن الحال، وعن نعم الله، والتأميل بلا عمل، والرغبة في الحصول على الجنة بلا كد أو تعب، وكثير من المسلمين مؤملون إلى درجة البلادة حقيقة، وأكثر الناس إيغالاً في الإثم هم أكثر الناس تأميراً في العفو، وهي معادلة خاسرة لا توافق قوله تعالى على لسان محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٢)، وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرَیَ اللَّهِ عَمَلِكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (٣) وآيات كثيرة في هذا السياق. وقد رويت عن أبي بكر وعمر كلمات تدل على مدى الخشية والخوف فما بالنا بنا؟

(١) عالم بلا حواجز، ص ١٩٥-١٩٧ بتصرف، تأليف: محمد فتحي، ط. أولى، ١٩٨٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢) سورة الأنعام: ١٥.

(٣) سورة التوبة: ١٠٥.

يقول ابن عطاء الله السكندري في الحكم: (أصل كل معصية وغفلة وشهوة: الرضى عن النفس، وأصل كل طاعة وبقظة وعفة عدم الرضى منك عنها، ولأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه خير من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه، فأى علم لعالم يرضى عن نفسه، وأى جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه.

توق نفسك لا تركز لطاعتها فالنفس أخبت من سبعين شيطاناً وإنما نهى عن صحبة الراضى عن نفسه لثلاثة أوجه:

أحدها: أن الراضى عن نفسه يرى لها من الحق ما لا نهاية له، فلا يبلغ رضاه أبداً، وإذا رضى فإنه يرى معاملتك معه بعض حقه، فصحبته تعب عاجل دون فائدة، ولا خير في صحبة من لا يرى لك مثل الذي ترى له.

الثاني: أن صحبته آيلة إلى الانقطاع؛ لأنه يحب الوفاء بالحقوق، والقيام بالكلف أبداً، فلا يغفر زلة، ولا يقلل عثرة، ثم إن فعل رأى لنفسه بذلك أعظم مزية، فمعاملته عبودية لا يرضاها حر لنفسه.

الثالث: أن الطبع يسرق من الطبع، والمرء على دين خليله، فصحبة الراضى عن نفسه تزيد في رضاك عن نفسك، وصحبة الساخط عليها تزيد في ذلك، ومن لم ينصح نفسه لا عبرة بصحبته..»^(١).

والدعاة مطلوب منهم المواظبة على نقد الذات، والتناصح فيما بينهم، وليس أمام الناس؛ حتى لا يصغروا في المجتمع، وينصرف الناس عن الاستماع إليهم، يقول الشيخ محمد الغزالي: «أعتقد أنه يجب أن ينتعش بين المسلمين فن (النقد الذاتي) وهو فن يقوم على محاكمة الواقع الإسلامي إلى المثل المقررة في الإسلام ذاته، وبيان مسافة القرب والبعد، والصواب والخطأ في هذا الواقع المضطرب، وهذا النقد هدفه إنصاف الإسلام ذاته، وإعطاء أجهزته الإعلامية قدرات على صدق التعبير وحماسه.

(١) من ص ١٥٧-١٦١ من: قرّة العين في شرح حكم العارف بالله ابن عطاء الله السكندري، ج ١، تحقيق: د. محمود بن الشريّ، ط. المكتبة العصرية - صيدا.

إن ثمة إجماعاً على أن المسلمين منحرفون عن دينهم، وأن هذا الانحراف يشمل سلوك الفرد والمجتمع، وتكاد الدول الإسلامية كلها تعد في جملة الدول المتخلفة، وهذا الهوان الحضاري سوف ينسحب على الإسلام ذاته، شئنا أم كرهنا، وسيظن كثيرون أن الإسلام وراء قصورنا وتقصيرنا، ولكي نجنب ديننا هذا الظلم الشديد ينبغي أن نذكر الحقيقة مستقاة من مصادرها الدينية الوثيقة ثم نذكر العوج الملحوظ في أحوالنا وأفعالنا، وبراءة الإسلام منه.

وهذا النقد الداتي ينهض على دراسة عميقة للإسلام وحضارته، ولا مانع أبداً أن تتسع دائرته لتتناول أخطاء وقعت في الماضي، فإن المسلمين غير معصومين، أما الإسلام نفسه فمعصوم، ويتم هذا المعنى نقد علمي آخر للمعارضة الناقمة على ديننا، والتي اعترضت من قديم مسيرته.

ومحور هذا النقد تفنيد التهم والشبهات التي اثارها المبشرون والمستشرقون من أصحاب الأغراض المغشوشة، والمنهج العلمي المكذوب.

والإعلام الإسلامي عندما يقوم بهذا الجهد الداخلي والخارجي يوفر جواً نظيفاً لمعرفة الإسلام، ومعرفة الخير العظيم الذي أسداه محمد ﷺ للعالم^(١).

الاهتمام بدعوة الأجانب:

إن القاريء المتابع لما يصنعه أعداء الإسلام من إرسال المبشرين بلغات أهل الأرض أجمعين يوقن بالتقصير من جهتنا في حق الإسلام، فهناك جهات كثيرة قد قصر المسلمون في حق أهلها، بينما وصل التبشير إليهم، وهم (يدرّبون الدعاة - المبشرين - على الصوم والبر. حيث يضطرون للعمل في الجبال، أو في الصحراء، والمشي على أقدامهم مسافات طويلة، ففي الولايات المتحدة الأمريكية تدريب عنيف للمنصرين الجدد. وقد افتتحت دورة جديدة للمنصرين الذين ينوون الذهاب للتنصير في مناطق صعبة، وذلك في مركز التدريب القاسي في مدينة سيمارون - ولاية كلورادو الأمريكية - ويختص

(١) الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشرو محمد الغزالي، ص ١٨٩-١٩٠.

المركز بتدريب المنصرين الذين ينوون العمل في بعض البلدان: كالنيبال،
وشمال غرب باكستان، وشمال الهند، وبوتان، والتبت.

ويضم المركز مناطق مرتفعة ووعرة مساحتها أربعون فدناً، وتدوم الدورة
خمس أشهر يتدرب فيها المنصر على تسلق الجبال، والرياضة البدنية والعادات
والتقاليد في هذه المناطق وتعليم الإنجيل^(١).

ونحن في حاجة إلى برنامج تدريبي للدعاة يشبه من بعض الوجوه ما
يصنعه المبشرون - على أن يكونوا من المتطوعين - القادر منهم يذهب على
نفقته الخاصة، مدفوعاً بالرغبة في جهاد الكلمة، أو على نفقة إحدى الجمعيات
الممولة من تبرعات الأغنياء والفقراء من المسلمين، على ألا نستعمل أية وسيلة
من وسائل الضغط أو الإكراه. بل نترك حسناطنا تتحدث عنا.

وسوف أسوق بعض الأمثلة، فتحت عنوان: (قبائل أدامبي يعلنون إسلامهم
في قرية دار التوبة) كتبت الكوثر ما يلي:

«قام مكتبنا بتسيير قافلة دعوية شملت خمس قرى لقبائل أدامبي حديثة
الدخول في الإسلام، وتبعد أقرب قرية منها عن العاصمة حوالي ٧٥ كم،
ومعظم أهالي هذه المنطقة من الوثنيين والمسيحيين، وقد أدى ذلك بالمسلمين
إلى تأسيس بلدة إسلامية تسمى (دار التوبة)؛ لأن المؤسسين لها غادروا قراهم
الأصلية فراراً بدينهم، حيث أصبحت هذه البلدة مأوى لكل مسلم من قبيلة
أدامبي.

وقد كانت فرحة المسلمين عظيمة، خاصة وأن معظم الأنشطة المصاحبة
للقافلة حضرها وثنيون ومسيحيون، ومنهم أمير إحدى القرى الذي وعد بأن
يعلن إسلامه قريباً، وهذا يعني أن جميع سكان القرية منهم من أسلم، ومنهم
من هو على وشك إعلان إسلامه^(٢).

(١) ص ١٢، مجلة الكوثر، العدد ١٦.

(٢) ص ٥، مجلة الكوثر، العدد ١٥.

«ومن توجو حضر رجل وثني متعلق بصنمه أثناء توزيع لحوم الأضاحي،
وشهد صلاة المسلمين، وبعد أخذ نصيبه من لحم الأضحية خاطب الداعية قائلاً:

يا إمام، أصحابك هؤلاء احتراموني احتراماً عظيماً، وأعطوني قطعة لحم
كبيرة، رغم أنني لست على دينهم، دينكم هذا دين عظيم. فسأله الداعية: لماذا لا
تدخل الإسلام، فهو خير لك؟ قال: ما عندي نقود، فقال له الداعية: الدخول في
الإسلام لا يحتاج إلى نقود، فطلب من الداعية أن يأتيه إلى بيته في اليوم
التالي، واعتنق الإسلام هو وزوجته، واثنان من أبنائه»^(١).

«ومن غينيا يقول أحدهم:

لو استمر إخواننا العرب في توزيع لحوم الأضاحي وغيرها من
المساعدات علينا لما وجد المنصرون سبيلاً لجذب الناس لدينهم الباطل»^(٢).

«ومن تشاد تردد رجل على المسجد كل جمعة دون أن يسلم.. ولما رآه
إمام المسجد أمره بالمواظبة على الحضور، والاختلاط بالمسلمين.. ليتعرف على
الإسلام عن قرب، وإذا به يعلن إسلامه».

هذا ما صنعه لحوم الأضاحي، والاختلاط بالمسلمين عن قرب، واحترام
غير المسلمين من تعرف مباشر على الإسلام والمسلمين، وهذه كلها أبواب
وفتوحات جديدة للدعوة الإسلامية.

«في رسالة من الأخ... مندوب لجنة مسلمي إفريقيا في منطقة غربتلا
بكينيا إلى الإخوة مسئولو لجنة مسلمي إفريقيا يقول:

أصاب المنطقة أوبئة كثيرة خلال الأشهر الماضية، بسبب القحط والجوع،
وتوفي في أسبوع واحد وعشرون طفلاً. كلهم بالإسهال، وفقر الدم، ولم تستطع
الجهات الحكومية تقديم أي شيء، فحتى حبة الإسبرين لا وجود لها منذ أكثر
من سنة في مستوصف الحكومة الذي تشرف عليه ممرضة، وعندما زارنا

(١) ص ٦، العدد ١٥ من الكوثر.

(٢) ص ٢، العدد ١٦ من الكوثر.

مندوبكم كتب تقريراً، وبعدها وصلتنا بعثتكم الطبية، ومعها كميات من الأدوية، وفي اليوم التالي عالجنا أكثر من ثلاثمائة مريض مصابين بالمalaria، وقد حدثت عدة وفيات في الأيام السابقة بالتهاب الصدر والإسهال، وأمراض الجفاف خاصة عند الأطفال، وقد عالجناهم بالسوائل في الوريد. وبعضهم كان على وشك الموت، وأؤكد لكم - إخواني - أن هذه الكمية قد أنقذت آلاف المرضى ممن لا يملكون ثمن أرخص الأدوية.

لقد كنا نرسل الغذاء لبعض المنكوبين من المرضى ممن لا يستطيعون الحضور للمركز، ولكنهم الآن بفضل الله يسيرون على أقدامهم كل يوم إلى المركز. إن الأهالي يعتبرون ما حدث رحمة من الله أن يرسل إليهم من إخوانهم العرب المسلمين من يعالجهم، ويعتني بهم، وهم في هذه المنطقة النائية البعيدة ويدعون لكل من ساهم في تمويل هذه الحملة»^(١).

«ومن مالي قال أحد كبار المسؤولين في مالي عند توزيع مساعدات في المساجد: والله لو تذكر المسلمون إخوانهم في إفريقيا منذ مدة لما وجد غيرهم موطيء قدم يقف عليها في القارة كلها»^(٢).

وللكتب دورها في تجديد الدعوة وخدمتها، وقد نشطت جهات إسلامية في طباعة الكتب ونشرها في بلدان غير إسلامية بلغات أهلها، وقد أدى هذا إلى إرواء غليل كثير من المتعطشين لمعرفة الإسلام، ودخل بعضهم في الإسلام، وقد شاهدنا وقرأنا عن أشخاص كانوا يبحثون عن الدين الحق عن طريق الدراسة، حتى اقتنعوا بأن الإسلام - لا غير - هو منقذهم، فاعتنقوه.

وقد أسلم «في أوغندا خمسة عشر ألفاً، أثر فيهم الكتاب الإسلامي تأثيراً واضحاً في نشر الوعي الإسلامي، وتنمية الالتزام عند المسلمين بتعاليم دينهم الحنيف، ولولاه لما وصلت الدعوة الإسلامية إلى ما وصلت إليه، والمسلمون في أوغندا فرحون وسعداء جداً بتعاون لجنة مسلمي إفريقيا معهم.

(١) ص ٢، العدد ١٥ من الكوثر.

(٢) ص ٢، العدد ٨ من الكوثر.

ولذلك فإنهم ما إن وجدوا كتاباً، أو أي مطبوعات إسلامية، حتى يرفعوا أكفهم ضارعين إلى الله عز وجل أن يجزي كل من ساهم في نشر الكتاب الإسلامي، وأن يبارك لهم في أموالهم وأولادهم، ويتقبل جميع أعمالهم، فقد كانوا يسمعون عن الإسلام، ولم يجدوا من يعلمه لهم، فأصبحوا الآن يقرأون عن الإسلام بلغتهم المحلية، ولذلك التزم الكثير منهم بمبادئ الإسلام، وعلى أثر انتشار الكتاب الإسلامي باللغات المحلية اعتنق الإسلام أكثر من خمسة عشر ألف شخص في أوغندا، من خلال مراكز المهتدين التابعين للجنة مسلمي إفريقيا»^(١).

وآمل أن يكون المسلمون قد انتفعوا في هذه الباكورة المباركة من أعمالهم الخيرية والطبوعية بتجارب سبق لأعداء الإسلام أن خاضوها، وأشار الدكتوران عمر فروخ ومصطفى الخالدي إليها في كتابهما القيم: «التبشير والاستعمار» في صفحتي ٢١، ٢٢، كما أشار شاتليه إلى ذلك في كتابه: «الغارة على العالم الإسلامي».

وأعداء الإسلام ساهرون لا ينامون وهم يقدمون خدمات في المجالات التالية:

- ١ - التدريب على أحدث الأجهزة التكنولوجية.
- ٢ - افتتاح المحطات للإذاعة.
- ٣ - سفن تجوب البحار للبحث عن ينصرونهم.
- ٤ - إقامة دورات للراغبين للاشتراك في التنصير.
- ٥ - ترجمة الإنجيل، وقد بلغ عدد اللغات التي ترجم إليها ٢١٢٣ لغة، منها: ٦٠١ لغة في إفريقيا، و٥٢٧ في آسيا، و٣٥٥ لغة في أستراليا وما حولها من جزر، و٣٧٣ لغة في أمريكا اللاتينية، و٩١ لغة في أوروبا، و٧٣ لغة في الولايات المتحدة وكندا. وقد ترجم الإنجيل في العام الماضي إلى ٣٣ لغة جديدة»^(٢).

(١) ص ٨، العدد ١٨ من الكوثر.

(٢) نقلاً عن التقرير السنوي لجمعيات الإنجيل المتحدة، ١٩٩٦، ص ١٢ من الكوثر العدد ٧.

وهناك جهود محمومة تحتاج إلى جهاد كبير لمقاومتها في كثير من بلدان العالم، وهم يحاولون معرفة ما يعترض به الغير عليهم سلفاً، وكيف يردون عليه، وتحت عنوان (في بريطانيا اعتراضات المسلمين على الإنجيل في كتاب): قال متحدث باسم مطبوعات OM، وشركة كلمة الحياة المتخصصة في إنتاج مطبوعات لتنصير المسلمين: أنهما قاما بطباعة كتاب للنصارى العاملين وسط المسلمين يجيب على كل اعتراضات المسلمين حول الإنجيل، ومؤلفه ستيفن مسعد، أصله إيراني، مرتد عن الإسلام^(١).

(١) العدد ١٨، من الكوثر ص ١٣.

المبحث الرابع

أمر لا بد منها للتجديد في الدعوة

الدعوة عمل عقل في عقول، وقلب في قلوب، ورجل في رجال، وليس أشق من أن تعمل في جبل من الثلج، أقله طاف، وأغلبه مركوم تحت سطح البحر، والنفس البشرية مغرمة بإخفاء داخلها، وكثيرون من الناس يظهرون خلاف ما يبطنون، فكيف نجذبهم لدين الله في وقت عوامل الطرد فيه أقوى من عوامل الجذب، ووسائل الصرف أقوى من وسائل الانقياد.

لذا وجب تكثير جند الله، حتى يكونوا أكفاء مئات الملايين من المسلمين، وتثقيفهم؛ حتى يكونوا قادرين على إقناع هذه الملايين، والأمر جد، لا هزل فيه، والمسلمون بحاجة ماسة إلى الدعاة الفاقهين.

والأمر يحتاج إلى:

أولاً - تقليب الأمر من جميع وجوهه على قدر الإمكان:

وهذا يستدعي:

- ١ - التمهّل وترك التعجل في قطف الثمار قبل نضجها، حتى لا تحدث نكسة دعوية.
 - ٢ - إعمال العقل، وتجنب الهوى، وتنحية النفس الأمانة.
 - ٣ - تجنب الآراء الناقصة والفاصلة، فضررها أكبر من نفعها، وهي مضيعة لوقت الداعي والمدعو وشغل له بغير ما يفيد.
 - ٤ - حذر التقليد للآخرين دون تمحيص، فهو مرض قديم حذر منه القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهُتَدُونَ ۚ﴾ (٢٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ (٢٣) ﴿١﴾.
- كما يجب التقليد إذا كان في الحق، ومن أجل الخير.

(١) سورة الزخرف: ٢٢، ٢٣.

٥ - حساب منفعة المسلمين، وحساب المضار من وراء ما نقول به من أقوال وأفعال.

٦ - دعوة الخطوة خطوة، أو ما يعرف بالتدرج.

ثانياً - تحسس الطريق للمواجهة مع الباطل أو المعاصي:

ويحتاج إلى أمور، منها:

١ - الإحاطة بكل الآراء وأدلتها على قدر الإمكان، حتى لا نتعصب لرأي يكون غيره أصح منه، أو دليله أضوأ من غيره.

٢ - اختيار الأيسر ما لم يكن إثماً، فالتيسير مطلوب، وهو سنة نبوية.

٣ - ألا نحكم على شيء بأنه بدعة إذا قال به إمام من الأئمة، وصح دليل، لمجرد أنه خالف مذهبنا الفقهي، وهو مسلك بعض المتعصبين، ويجب أن يتجنب في الدعوة.

٤ - تجنب الإثارة، ومحاولة الاحتواء، فمن شأن الإثارة تكدير الصفوف، وشق الصف،

وبذر الشقاق، وكلها ضد مصلحة الدعوة، ومن أمثلة ذلك: ما حدث بين موسى وفرعون، قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنتُم تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾^(١) وفي سورة طه يقول تعالى: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نُنْيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٤٦﴾ فَأَنبَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا نُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى

(١) سورة الشعراء: ٢٣-٢٨.

﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُم إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ ﴿٥٥﴾ (١).

٥ - التلويع بالمغفرة وقبول التوبة، وقد ورد في سور كثيرة؛ في هود، وفي نوح والأعراف. قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كَانُمْ غَافَرًا﴾ ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾، وغيرها في القرآن كثير.

وهو سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿٣﴾، ويقول: ﴿يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِزَّكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ ﴿٣١﴾ ﴿٣٢﴾ (٤).

٦ - التوقع من لوازم المواجهة: وليس يستطيع هذا في الدعوة إلا مبرأ من العقد أو مستوى معرفي وأخلاقي راق، وذو صبر وصدر واسع، مع الرفق بالناس، وإظهار الود لهم أثناء دعوتهم، مع تجنب الرغبة في العلو؛ لأنها تؤدي إلى:

أ - انصراف الناس.

ب - تأجيج العداوات.

ج - زيادة الفرقة.

د - إيقاظ عوامل العناد....

(١) سورة طه: ٤٢-٤٥.

(٢) سورة نوح: ١٠-١٣.

(٣) سورة النور: ٥.

(٤) سورة الأحقاف: ٣١.

٧ - التعميم حيث يستمع لنا الناس جميعاً، أو يقرأون، فيدرك من فيه ما ندعو إليه - حسناً كان أو قبيحاً - أنه المعني بما يقال. دون أن نخصص.

٨ - حسن الظن، فلولا له لملاً الألم القلوب، وأصاب النفوس بالإحباط، وهذا من أعدى أعداء الدعوة، ولو رأينا أن المستقبل مظلم ما أثارنا منا قلوب، وما اهتمت عقول.

وللإمام مالك كلمة طيبة يجب أن تكون نبزاً لنا فيما نسمع وما نعيش حيث يقول: لو قال رجل كلمة تحتمل تسعة وتسعين وجهاً من الكفر ووجهاً واحداً من الإسلام لحملتها على الإسلام.

وإضافة إلى ما سبق يذكر المرحوم الشيخ محمد الغزالي أموراً لا بد منها في الدعوة، يقول:

«والدعوة الإسلامية لكي تبلغ أهدافها تحتاج إلى أربعة أمور:

أولاً: منع الفتنة، أو بتعبير أوضح منع الإرهاب المحلي، أو الدولي من تقييد الدعاة، وتكميم أفواههم.

ثانياً: عرض الدعوة على الجماهير عرضاً صحيحاً، يغري ذوي الطباع السليمة بقبولها.

ثالثاً: نشر الثقافة الإسلامية على نحو يرسخ مفاهيم الدعوة، ويجعلها أكثر تأثيراً في البيئة، فتختلط بالعوامل المؤثرة في الناس، وتمزج القديم بالحديث.

رابعاً: النظر فيما بذل من جهود من أجل الإسلام قديماً، وما تم من تقدم، وما هي أسبابه، وعوائق التجمد وأسبابها.

وينبغي على الداعية المسلم أثناء عمله أن يتعرف على مدى ارتباط المدعوين به، ومقدار انتفاعهم.

خامساً: الاستمرارية والمتابعة، فالدعوة حياة دين، والمتابعة لا بد منها، حتى يبقى ما ندعو إليه متوهجاً في قلوبهم، وكما قيل:

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومُذ من القرع للأبواب أن يلجا

إن الناس إذا لم يذكروا نسوا، أو أنسوا، ففي خضم الحياة تنسى أشياء كثيرة، إن العمل والمتابعة - بعده - سر النجاح، وذلك لا تقوم به إلا حكومات قائمة، أو هيئات دائمة، والجهد الفردي يعد نجاحه شذوذاً، بل نجاحه بعيد إذا قاومته مؤسسات رسمية، أو شعبية مستقرة، وعلى أية حال فإن الإسلام شرّق وغرّب في أنحاء العالم، ولكن المسلمين في كثير من الأقطار لم يجدوا المتابعة الواجبة المستمرة - خصوصاً الأطراف النائية - سواء في ذلك شرق العالم الإسلامي وغربه، ونشأ من ذلك شيوع البدع والخرافات، والإحساس بالانقطاع والوحشة، ولم يستغل موسم الحج وهو الملتقى الوحيد الذي يجمع المسلمين من أصقاع العالم كله.

واستغل أعداء الإسلام هذه الوحشة، فوثبوا على الأماكن القصية، فاقطعوها، وضموها إلى عالم التثليث والإلحاد.

كانت جزر الهند الشرقية قد عمرت بالإسلام، فوثب عليها الأسبان، وغيرهم من المغامرين، ووضعوا عليها اسم فيليب الثاني، وشرعوا في تنصيرها بدأب، والمسلمون غافلون، حتى جاء هذا القرن ولم يبق على الإسلام إلا عُشر الفلبين.

ومستقبلهم - ومستقبل الإسلام معهم - موكول إلى السيف والنار، وما حدث للفلبين يراود تكراره في إندونيسيا، وفي البلقان.

إنها الرغبة المحمومة في محو الوجود الإسلامي من بلاد ظل فيها مئات السنين، أي إن ما وضع من خطط يقوم على خطف الأطراف؛ تمهيداً لضرب القلب نفسه»^(١).

توحيد أجهزة الدعوة:

من العجب: أن يتجمع الأخوة الأعداء علينا، ونحن لا نريد أن نتجمع. لقد

(١) الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، المرحوم الشيخ محمد الغزالي، ص ٤٧-٤٨ بتصرف.

اتفق علينا الشيوعيون، والصهيونيون، والصليبيون، وعباد البقر والحجر، حتى فيما هو دعوة بحتة، ونحن لا نريد أن نتجمع.

من زمن طويل نودي في إحدى البلاد العربية بتوحيد جهاز الدعوة، أي أن يكون الوعاظ وأئمة المساجد تحت إدارة واحدة، ولكن هذه الدعوة وئدت في مهدها، ولم تلق استجابة في حينها، وحبذا لو فكر المسلمون في تكوين هيئة إسلامية عالمية تشرف على الدعوة الإسلامية، اختياراً للدعاة، وتثقيفاً لهم وتربية وإمداداً بكل ما يؤدي إلى نجاحهم، تشترك فيها جميع الدول الإسلامية، كل بما هو متيسر لديه، وهي ضرورية للأمور، منها:

١ - أنها تشكل إطاراً عملياً لعالمية الإسلام، حيث تجمع مسلمين من شتى بقاع الأرض، لتدارس العقبات التي تواجه الدعوة، والعوامل التي تؤدي إلى إنجاحها.

٢ - تجمع خبرات ذات تجارب متنوعة وثرية، تثري كل منها الخبرات الأخرى، فيكمل كل قطر ما عند الآخر، من نقص في الخبرة، أو في الأفكار والتجارب.

٣ - تشكل محاضراتها واجتماعاتها حين تطبع مرجعية تربوية منظمة، يتابعها الدعاة الصغار وتتابعهم، فتشجع هذا، وتقوم هذا، وقد تنفي وتبعد، وقد تعاقب، كله وارد.

٤ - يكون لها اجتماعات دورية تستعرض أعمال الدعاة، وتثبت عوامل النجاح وتنفي عوامل الفشل، وتزيل المعوقات، أو تذللها. وحبذا لو فُعلَ دور حركة التبليغ، ورقيت ثقافة أفرادها، إذن لاستفادت وأفادت.

٥ - أن يكون لها مطبعة ومجلة، أو جريدة، أو دورية، أو إذاعة، أو محطة تلفزة.

٦ - أن تمولها الدول، ولا مانع من اشتراك هيئات إسلامية، أو أفراد مسلمين.

٧ - على الساحة الإسلامية خير كثير، من دعاة مرموقين يمكن الاستفادة منهم، وقد عرض الأستاذ محمد فتحي في كتابه (عالم بلا حواجز) فكرة التلفزيون الموحد، ولا بأس من إذاعة موحدة، أو مجلة لجهاز الدعوة الدولي. يقول: «فكرة تلفزيون دولي موحد يذيع الرسالة الموحدة لأهل الأرض

جميعاً: فكرة عظيمة الخطر. جليلة القدر. لذا ينبغي أن تعرض على أصحاب الاختصاص، ولا شك أنها تشغل ذهن كل قائم على الحضارة الإنسانية، وتتطلب التمعن الدقيق.

لم تظهر بعد دراسات تتناول هذا الموضوع الجليل الشأن، ونحن - والعالم العربي بصفة خاصة - يتعين علينا أن نعكف على الدراسة، ووضع الخطط للانتفاع من الخدمة التليفزيونية الدولية في شتى أشكالها، وقد يكون علينا رسم الصورة المثلى لديننا، وثقافتنا الإسلامية، وإذا لم نعد العدة من الآن فقد تدهمنا الأحداث، ونجد أنفسنا عاجزين عن مواجهة الموقف، ثم لا يكون أمامنا إلا الارتجال المتعجل، فتضيع علينا فرصة ثمينة للتعريف بديننا، وثقافتنا، نحن أحوج ما نكون إليها»^(١).

وهذا الذي ندعو إليه من توحيد أجهزة الدعوة - ويشاركنا الرأي الأستاذ محمد فتحي - تداعى أعداء الإسلام إليه، فقد جاء في كتاب (الغارة على العالم الإسلامي) ما يلي:

«ولو كان المبشرون الكاثوليك والبروتستانت الذين يجتمعون في بلاد إسلامية ينتبهون إلى أن انقسامهم يحط من قدرهم، ويقلل هيبته، ويؤكد أركان الإسلام لكانوا على الأقل يوهمون بأنهم متفقون ظاهراً. خصوصاً وأن انقسامهم هذا يمهّد للإسلام السبيل لاستمرار مبادئ الحضارة من إرساليات المبشرين من غير أن يقتبسوا أفكارها الدينية.

ولا ريب أن الأنكياء في مصر وسوريا عندما يقفون على هذه التفرقة الموجودة بين الإرساليات الكاثوليكية والبروتستانتية والعلمانية اللاتي تتجاهل كل منهن الأخرى لا يترددون في الحكم على مذاهب النصرانية بأنها قد فقدت التوازن، بالرغم من الخدم التي تأتي بها الحضارة الأوروبية»^(٢).

(١) عالم بلا حواجز، ص ١٩٤-١٩٥ بتصرف يسير.

(٢) ص ١٢ من الغارة على العالم الإسلامي، ل شاتليه، ترجمة: محب الدين الخطيب ومساعد اليافي، ط. السلفية، ١٩١٢ م.

ولنترك كلام شاتليه جانباً، وقد نشر كتابه لأول مرة عام ١٩١٢، ثم أعيد نشره مرة أخرى في الثلاثينات من القرن العشرين، وهو ترجمة لعدد من أعداد مجلة العالم الإسلامي، وكانت تصدر في باريس، وليس من الصدف أن يكون لهذا الكتاب قبل ترجمته هذا الصدى لدى مسيحيي بلد كلبنان، فلننظر ولنتأمل لهجة منشور كتب بالفرنسية، ووجد مصادفة في أحد أديرة لبنان سنة ١٩١٣، ولعلنا نعتبر، أو نقلد - لمصلحة الإسلام والمسلمين - بعض ما جاء فيه، وهو على هيئة نصيحة للبنانيين، موجهة إليهم من الدولة، وفيه:

«يا من صبرتم على الذل والهوان دفاعاً عن عقيدتكم - يقصد أيام الحكم الإسلامي - لا تنسوا هذه الوصايا العشر:

١ - رتبنا لكم ما يضمن لكم معيشة حسنة، مثل: تملك الأراضي، والوكالات الأجنبية، وشؤون النقل، والوضع السياسي، فحافظوا على هذه المكاسب، وزيدوها مع الأيام.

٢ - هذا الوطن لم يخلق إلا لكم، فاعلموا أن كلمة لبناني لا تعني إلا مسيحياً.

٣ - سيطروا جاهدين على المصايف والسياحة، وامتلاك ساحل البحر، وأخرجوهم - يقصد المسلمين - من قراكم كلما أصبحت أغلبية، وجهزوا لكم ميناء غير بيروت. لا يكون فيه مسلمون. وقد تم ذلك.

٤ - عليكم بأسباب القوة: من رياضة، وسلاح، وتنظيمات للشباب، واهتموا بالجيش، واكتموا أموركم.

٥ - حافظوا على نشر الكتب، وسيطروا على النقابات والاتحادات، ولا تعترفوا بأن تراث لغتكم وتاريخكم ملك للمسلمين، وحاربوا بلا هوادة الأفكار والأشخاص الذين يعاكسون اتجاهكم.

٦ - الاختلافات المذهبية يجب ألا تفرقكم؛ لأن حياتكم مرهونة باتحادكم أمام العدو الكافر - المسلمين -، لأنكم أبناء يسوع الذي علمنا المحبة.

٧ - ادرسوا ما عند الآخرين، واختلطوا بهم؛ لتعرفوا ما عندهم، وتظاهروا بتأييدهم عند الضرورة، ولكن ابقوا مرتبطين بمبادئكم وكنيستكم!!!

- ٨ - ارفعوا رؤوسكم في كل مكان؛ لأن القوى الجبارة في العالم الحر تساعدكم، وتقف بجواركم بأسرع وقت، على أن تتظاهروا بأنكم لا تعرفون ذلك.
- ٩ - تقربوا لحكام العرب بالخدمات الشخصية؛ لأن هذا يفتح لكم مجالات واسعة للعمل، ويدر عليكم أموالاً هائلة، ونفوذاً أكبر، حتى في البلاد المستعصية عليكم.
- ١٠ - الاهتمام بالجنسية اللبنانية، داخل وخارج لبنان^(١).
هذا المنشور يحتاج إلى قراءة متأملة واعية ففيه:
- ١ - التنديد بالحكم الإسلامي، والتحريض على المسلمين.
- ٢ - إشاعة روح التعصب، فمن المعلوم أن أغلب هؤلاء ليسوا عرباً، وإنما هم بقايا الصليبيين الذين وطنتهم فرنسا في لبنان.
- ٣ - الوصية بامتلاك الشواطئ، ودفع المسلمين إلى الجبال والصحاري، وهذه وصية كل المبشرين ودولهم، حتى إذا جاءت بضائع، أو أسلحة، أو احتاجوا إلى دعم يقع ذلك دون انتباه المسلمين له.
- ٤ - نبذ التراث الإسلامي، والسيطرة على تجمعات العمال والتجار.
- ٥ - دعوة إلى التوحيد رغم أن كل طائفة تكفر الأخرى.
- ٦ - دراسة ما عندنا، حتى تكون المقاومة مكافئة له.
- ٧ - الدعوة إلى التعالي على المسلمين، والتباهي بأن أعداء الإسلام يساندونهم. إلى آخر ما في هذا المنشور، وليس هذا عجيباً، ما داموا يصرحون بأنهم لن يستريحوا إلا إذا ارتفع الصليب في مكة والمدينة، ويدعون ربهم أن يهدي الكفار - المسلمين -؛ ليدخلوا في دينهم، وعش رجلاً تشهد عجباً.

(١) الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، محمد الغزالي، ص ١٠٤-١٠٦ باختصار.

خاتمة

إن صنع أمة يحتاج إلى رجال أكفاء، لهذا، ونقل الطباع أثقل من نقل الجبال، ومن هنا جاء حديث المصطفى ﷺ عن ثواب هداية الرجال فيما رواه سهل بن سعد الساعدي قول رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب في حديث طويل: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»^(١).

وفي رحلتي مع التجديد في الدعوة رأيت أن الدعوة في حاجة إلى استخلاص جيل من القادرين على تحمل هذه التبعة، يزودون بالعلم والخلق ويكونون راغبين راهبين، لا منتفعين ولا متلونين، وهم جند الله الذين يجاهدون بغير سلاح، إلا سلاح الوحي والحجة. علمهم وخلقهم معهم، ولديهم وسائل مكافئة لما عند الغير. منوروا البصائر، مشرقو العقول، قد نذروا لله أرواحهم وعقولهم. وتخلقوا بأخلاق النبوة، واقتدوا بالصحابة في جهادهم، وحبهم لله ولرسوله.

وإذا كان لا بد من أمنية، فهي أن يترجم ما في هذا البحث إلى واقع عملي في مسيرة الدعوة وتربية الدعاة.

وإذا كان التبشير يعمل الآن بما يقرب من خمسة ملايين مبشر، فإنني أرجو أن يعمل المسلمون في نشر الإسلام، ولو بمائة ألف، يربون ويرسلون إلى كل أصقاع المعمورة؛ لتسمع صوت الإسلام.

كما آمل أن يكون هناك من الوسائل ما لدى الغير من كتب وأشرطة، وإنترنت ومعونات ومعاهد، وطب، وأن يمول هذا من أهل الخير الراغبين في عمل الخير، والمؤمنين في الجنة.

ومن فترة طويلة تنبه المسلمون إلى الوسائل الاجتماعية وأثرها في نشر الدعوة بين غير المسلمين، وزيادة تمسك المسلمين بدينهم، فتأسست لذلك

(١) متفق عليه.

جميعيات، كما كتب الكاتبون حول هذه الوسائل وما يستفيدة منها المسلمون من دعاية لدينهم ولأمتهم.

إن الكلمة صارت تقطع أرجاء الأرض من أقصاها لأقصاها في دقائق، فما أخرى المسلمين أن يُسمعوا شعوب الأرض صوت الإسلام، ويروهم أخلاقه، وفي هذه المرحلة التي سيطرت فيها المادية يحتاج الناس إلى روحية الإسلام، ترطب الجفاف الذي يعيشونه، وتربت على ظهورهم التي تنوء بثقل المادة، واللهث وراءها.

وما أكثر العقلاء والباحثين عن واحة الإسلام في صحراء المادة، والذين تطالعنا الصحف بأخبار إسلامهم، وعلى الله التوفيق، ومنه التسديد.

مراجع البحث

- ١ - بهذا ألقى الله، أ. د. حسان حتحوت، ط. ثانية، مؤسسة فهد المرزوق.
- ٢ - التبشير والاستعمار، أ. د. عمر فروخ، ود. مصطفى الخالدي، المكتبة العصرية - بيروت، ط. خامسة، ١٩٧٣.
- ٣ - تجديد في المسلمين لا في الإسلام، أ. د. عمر فروخ، دار الكتاب العربي - بيروت، ط. أولى، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- ٤ - تراث الإسلام، ط. عالم المعرفة - الكويت.
- ٥ - تفسر ابن كثير، ط. الريان.
- ٦ - التفسير الكبير، للإمام فخر الدين الرازي، ط. ثانية، دار الكتب العلمية - طهران.
- ٧ - تمييز الطيب من الخبيث فيما اشتهر على ألسنة الناس من الحديث لابن الديبع الشيباني، ط. صبيح.
- ٨ - جدد حياتك، الشيخ محمد الغزالي، دار الكتب الحديثة.
- ٩ - حوار لا مواجهة، تأليف: أ. د. أحمد كمال أبو المجد، دار الشروق، ط. ثانية، ١٤٠٨هـ / ١٩٩٨م.
- ١٠ - الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، الشيخ محمد الغزالي، ط. أولى، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ذات السلاسل - الكويت.
- ١١ - رياض الصالحين للإمام محيي الدين النووي، ط. عيسى الحلبي، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م.
- ١٢ - صيد الخاطر للإمام ابن الجوزي، دار الفكر، ط. خامسة، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.
- ١٣ - عالم بلا حواجز، محمد فتحي، ط. أولى، ١٩٨٢م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- ١٤ - الغارة على العالم الإسلامي، لـ شاتليه، ترجمة: محب الدين الخطيب ومساعد اليافى، ط. السلفية، ١٩١٢م.
- ١٥ - الفوائد لابن قيم الجوزية، دار الكتب الحديثة.
- ١٦ - قذائف الحق، الشيخ محمد الغزالي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٣٩٣هـ.
- ١٧ - قرّة العين في شرح الحكم العطائية، تحقيق: د. محمود بن الشريف، المكتبة العصرية - بيروت.
- ١٨ - كيف نتعامل مع القرآن، الشيخ محمد الغزالي، دار الوفاء - مصر، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.
- ١٩ - اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، محمد فؤاد عبدالباقي، ط. ثانية، وزارة الأوقاف الكويتية.
- ٢٠ - مبادئ الفن، تأليف: روبين جورج كولنجوود، ترجمة: أحمد حمدي محمود، ط. مهرجان القراءة للجميع.
- ٢١ - مجلة الكوثر تصدرها جمعية إحياء التراث الإسلامي بالكويت.
- ٢٢ - مشكلات الأفكار في العالم الإسلامي، مالك بن نبي، ترجمة: د. بسام بركة ود. أحمد شعبو، ط. أولى، دار الفكر، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.
- ٢٣ - معركة المصحف في العالم الإسلامي، الشيخ محمد الغزالي، ط. أولى، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م، دار الكتب الحديثة.
- ٢٤ - مقدمات البعث الحضاري، أ. د. سيد دسوقي حسن، المكتب المصري الحديث، ط. أولى.
- ٢٥ - المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال للإمام الذهبي، تحقيق وتعليق: محب الدين الخطيب، ط. السلفية، ١٣٧٤هـ.
- ٢٦ - وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي، دار المعارف.
- ٢٦ - يوميات ألماني مسلم، مراد هوفمان، ترجمة: د. عباس رشدي العماري، مركز الأهرام للترجمة والنشر.